فَصْلٌ

بيان أن تفسيرهم للتثليث تفسير باطل

قَالَ الحَاكِي [١] عَنْهُمْ: فَقُلْتُ: إِنَّهُمْ يُنْكِرُونَ عَلَيْنَا فِي قَوْلِنَا، أَبٌ وَابْنٌ، وَرُوحُ قُدُسٍ، وَأَيْضًا فِي قَوْلِنَا إِنَّهُمْ ثَلَاثَةُ أَقَانِيمَ، وَأَيْضًا فِي قَوْلِنَا إِنَّ المَسِيحَ رَبٌّ وَإِلَهٌ وَخَالِقٌ، وَأَيْضًا يَطْلُبُونَ مِنَّا إِيضَاحَ تَجْسِيدِ تَجَسُّمِ كَلِمَةِ اللهِ الخَالِقِ بِإِنْسَانٍ مَخْلُوقٍ.

أَجَابُوا قَائِلِينَ: لَوْ عَلِمُوا قَوْلَنَا هَذَا إِنَّمَا نُرِيدُ بِهِ القَوْلَ الَّذِي يَعْنِي أَنَّ اللهَ شَيْءٌ حَيٌّ نَاطِقٌ لَمَّا أَنْكَرُوا عَلَيْنَا ذَلِكَ، لِأَنَّنَا مَعْشَرَ النَّصَارَى لَمَّا رَأَيْنَا حُدُوثَ الأَشْيَاءِ عَلِمْنَا أَنَّ شَيْئًا غَيْرَهَا أَحْدَثَهَا، إِذْ لَا يُمْكِنُ حُدُوثُهَا مِنْ ذَوَاتِهَا لِمَا فِيهَا مِنَ التَّضَادِّ وَالتَّقَلُّبِ.

فَقُلْنَا: إِنَّهُ شَيْءٌ لَا كَالأَشْيَاءِ المَخْلُوقَةِ إِذْ هُوَ الخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَذَلِكَ لِنَنْفِيَ عَنْهُ العَدَمَ، وَرَأَيْنَا الأَشْيَاءَ المَخْلُوقَةَ تَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ: شَيْءٌ حَيٌّ، وَشَيْءٌ غَيْرُ حَيٍّ، فَوَصَفْنَاهُ بِأَجْمَلِهِمَا، فَقُلْنَا: هُوَ شَيْءٌ حَيٌّ، لِنَنْفِيَ المَوْتَ عَنْهُ، وَرَأَيْنَا الحَيَّ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ: حَيٌّ نَاطِقٌ، وَحَيٌّ غَيْرُ نَاطِقٍ، فَوَصَفْنَاهُ بِأَفْضَلِهِمَا، فَقُلْنَا: هُوَ شَيْءٌ حَيٌّ نَاطِقٌ لِنَنْفِيَ الجَهْلَ عَنْهُ.

وَالثَّلَاثَةُ أَسْمَاءٍ وَهِيَ إِلَهٌ وَاحِدٌ، مُسَمًّى وَاحِدٌ، وَرَبٌّ وَاحِدٌ، خَالِقٌ وَاحِدٌ شَيْءٌ حَيٌّ نَاطِقٌ، أَيِ الذَّاتُ وَالنُّطْقُ وَالحَيَاةُ، فَالذَّاتُ عِنْدَنَا الأَبُ الَّذِي هُوَ ابْتِدَاءُ الِاثْنَيْنِ، وَالنُّطْقُ الِابْنُ الَّذِي هُوَ مَوْلُودٌ مِنْهُ لِوِلَادَةِ النُّطْقِ مِنَ العَقْلِ، وَالحَيَاةُ رُوحُ القُدُسِ، وَهَذِهِ أَسْمَاءٌ لَمْ نُسَمِّهِ نَحْنُ بِهَا.

وَالجَوَابُ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا- قَوْلُهُمْ: أَمَّا قَوْلُنَا أَبٌ، وَابْنٌ، وَرُوحُ قُدُسٍ، فَلَوْ عَلِمُوا قَوْلَنَا هَذَا إِنَّمَا نُرِيدُ بِهِ تَصْحِيحَ القَوْلِ بِأَنَّ اللهَ حَيٌّ نَاطِقٌ لَمَا أَنْكَرُوا ذَلِكَ عَلَيْنَا، فَيُقَالُ: لَيْسَ الأَمْرُ كَمَا ادَّعَوْهُ

(١) الحاكي عنهم: بولس الإنطاكي أسقف صيدا، ومؤلف الرسالة التي يرد عليها الشيخ.
والمحكي عنهم: هم علماء النصارى ببلاد الروم وقبرص.

فَإِنَّ النَّصَارَى يَقُولُونَ: إِنَّ هَذَا القَوْلَ تَلَقَّوْهُ عَنِ الإِنْجِيلِ، وَإِنَّ فِي الإِنْجِيلِ عَنِ المَسِيحِ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ - أَنَّهُ قَالَ: عَمِّدُوا النَّاسَ بِاسْمِ الأَبِ، وَالِابْنِ وَرُوحِ القُدُسِ فَكَانَ أَصْلُ قَوْلِهِمْ هُوَ مَا يَذْكُرُونَهُ مِنْ أَنَّهُ مُتَلَقًّى مِنَ الشَّرْعِ المُنَزَّلِ لَا أَنَّهُمْ أَثْبَتُوا الحَيَاةَ وَالنُّطْقَ بِمَعْقُولِهِمْ، ثُمَّ عَبَّرُوا عَنْهَا بِهَذِهِ العِبَارَاتِ، كَمَا ادَّعَوْهُ فِي مُنَاظَرَتِهِمْ.

وَلَوْ كَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ لَمَا احْتَاجُوا إِلَى هَذِهِ العِبَارَةِ، وَلَا إِلَى جَعْلِ الأَقَانِيمِ ثَلَاثَةً، بَلْ مَعْلُومٌ عِنْدَهُمْ، وَعِنْدَ سَائِرِ أَهْلِ المِلَلِ أَنَّ اللهَ مَوْجُودٌ حَيٌّ عَلِيمٌ، قَدِيرٌ مُتَكَلِّمٌ لَا تَخْتَصُّ صِفَاتُهُ بِثَلَاثَةٍ، وَلَا يُعَبَّرُ عَنْ ثَلَاثَةٍ مِنْهَا بِعِبَارَةٍ لَا تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، وَهُوَ لَفْظُ: الأَبِ، وَالِابْنِ، وَرُوحِ القُدُسِ، فَإِنَّ هَذِهِ الأَلْفَاظَ لَا تَدُلُّ عَلَى مَا فَسَّرُوهَا بِهِ فِي لُغَةِ أَحَدٍ مِنَ الأُمَمِ، وَلَا يُوجَدُ فِي كَلَامِ الأَنْبِيَاءِ أَنَّهُ عَبَّرَ بِهَذِهِ الأَلْفَاظِ عَمَّا ذَكَرُوهُ مِنَ المَعَانِي، بَلْ إِثْبَاتُ مَا ادَّعَوْهُ مِنَ التَّثْلِيثِ وَالتَّعْبِيرِ عَنْهُ بِهَذِهِ الأَلْفَاظِ هُوَ مِمَّا ابْتَدَعُوهُ لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ لَا شَرْعٌ وَلَا عَقْلٌ.

وَهُمْ يَدَّعُونَ أَنَّ التَّثْلِيثَ وَالحُلُولَ وَالِاتِّحَادَ إِنَّمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْعِ، وَهُوَ نُصُوصُ الأَنْبِيَاءِ وَالكُتُبِ المُنَزَّلَةِ، لَا مِنْ جِهَةِ العَقْلِ، وَزَعَمُوا أَنَّ الكُتُبَ الإِلَهِيَّةَ نَطَقَتْ بِذَلِكَ، ثُمَّ تَكَلَّفُوا لِمَا ظَنُّوهُ مَدْلُولَ الكِتَابِ طَرِيقًا عَقْلِيَّةً، فَسَّرُوهُ بِهَا تَفْسِيرًا ظَنُّوهُ جَائِزًا فِي العَقْلِ وَهَذَا نَجِدُ النَّصَارَى لَا يَلْجَئُونَ فِي التَّثْلِيثِ وَالِاتِّحَادِ إِلَّا إِلَى الشَّرْعِ وَالكُتُبِ وَهُمْ يَجِدُونَ نَفْرَةَ عُقُولِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ عَنِ التَّثْلِيثِ وَالِاتِّحَادِ وَالحُلُولِ فَإِنَّ فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا وَمَا جَعَلَهُ اللهُ فِي قُلُوبِ النَّاسِ مِنَ المَعَارِفِ العَقْلِيَّةِ الَّتِي قَدْ يُسَمُّونَهَا نَامُوسًا عَقْلِيًّا طَبِيعِيًّا يَدْفَعُ ذَلِكَ وَيَنْفِيهِ وَيُنَفِّرُ عَنْهُ وَلَكِنْ يَزْعُمُونَ أَنَّ الكُتُبَ الإِلَهِيَّةَ جَاءَتْ بِذَلِكَ وَأَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ يَفُوقُ العَقْلَ وَأَنَّ هَذَا الكَلَامَ مِنْ طَوْرٍ وَرَاءَ طَوْرِ العَقْلِ فَيَنْقُلُونَهُ لِظَنِّهِمْ أَنَّ الكُتُبَ الإِلَهِيَّةَ أَخْبَرَتْ بِهِ، لَا لِأَنَّ العُقُولَ دَلَّتْ عَلَيْهِ، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الكُتُبِ الإِلَهِيَّةِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، بَلْ فِيهَا مَا يَدُلُّ عَلَى نَقِيضِهِ كَمَا سَنَذْكُرُهُ - إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى -، وَلَا يُمَيِّزُونَ بَيْنَ مَا يُحِيلُهُ العَقْلُ وَيُبْطِلُهُ وَيَعْلَمُ أَنَّهُ مُمْتَنِعٌ، وَبَيْنَ مَا يَعْجِزُ عَنْهُ العَقْلُ فَلَا يَعْرِفُهُ وَلَا يَحْكُمُ

فِيهِ بِنَفْيٍ وَلَا إِثْبَاتٍ، وَأَنَّ الرُّسُلَ أَخْبَرَتْ بِالنَّوْعِ الثَّانِي: وَلَا يَجُوزُ أَنْ تُخْبِرَ بِالنَّوْعِ الأَوَّلِ، فَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ مُحَالَاتِ العُقُولِ وَمَحَارَاتِ العُقُولِ، وَقَدْ ضَاهَوْا فِي ذَلِكَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ المُشْرِكِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا للهِ وَلَدًا شَرِيكًا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠].

وَقَدْ ضَاهَاهُمْ فِي ذَلِكَ أَهْلُ البِدَعِ وَالضَّلَالِ المُشْبِهُونَ لَهُمْ مِنَ المُنْتَسِبِينَ إِلَى الإِسْلَامِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: نَحْوَ قَوْلِهِمْ مِنَ الغُلُوِّ فِي الأَنْبِيَاءِ وَأَهْلِ البَيْتِ وَالمَشَايِخِ وَغَيْرِهِمْ، وَمَنْ يَدَّعِي الوَحْدَةَ أَوِ الحُلُولَ أَوِ الِاتِّحَادَ الخَاصَّ المُعَيَّنَ كَدَعْوَى النَّصَارَى وَدَعْوَى الغَالِيَةِ مِنَ الشِّيعَةِ فِي عَلِيٍّ وَطَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ كَالنُّصَيْرِيَّةِ وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ يَدَّعِي إِلَهِيَّةَ عَلِيٍّ، وَكَدَعْوَى بَعْضِ الإِسْمَاعِيلِيَّةِ الإِلَهِيَّةَ فِي الحَاكِمِ وَغَيْرِهِ مِنْ بَنِي عَبْدِ اللهِ بْنِ مَيْمُونٍ القَدَّاحِ(١) المُنْتَسِبِينَ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرٍ(٢).

وَدَعْوَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ نَحْوَ ذَلِكَ فِي بَعْضِ الشُّيُوخِ، إِمَّا المَعْرُوفِينَ بِالصَّلَاحِ، وَإِمَّا مَنْ يُظَنُّ بِهِ الصَّلَاحُ وَلَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ، فَإِنَّ لَهُمْ أَقْوَالًا مِنْ جِنْسِ أَقْوَالِ النَّصَارَى، وَبَعْضُهَا شَرٌّ مِنْ أَقْوَالِ النَّصَارَى.

---

(١) **عبد الله بن ميمون القداح**: فقيه إمامي من أهل مكة، واهي الحديث عند علماء أهل السنَّة وهو من الثقات عند الشيعة، كان أبوه فارسي الأصل من موالي بني مخزوم عرف بالقداح وهي صناعته، مات سنة ١٨٠ هـ.

(٢) **محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق** الحسيني الطالبي الهاشمي، إمام من أئمة آل البيت قالت بإمامته القرامطة، ويرى الإسماعيلية أنه قام بالإمامة بعد وفاة أبيه، وقد ولد بالمدينة المنورة سنة ١٣١هـ، ومات ببغداد سنة ١٩٨هـ تقريبًا.
ومن الباطنية من يعتقد أنه نبي نسخ شريعة محمد ﷺ.

وَعَامَّةُ هَؤُلَاءِ إِذَا خُوطِبُوا بِبَيَانِ فَسَادِ قَوْلِهِمْ، قَالُوا مِنْ جِنْسِ قَوْلِ النَّصَارَى: هَذَا أَمْرٌ فَوْقَ العَقْلِ، وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ مَا كَانَ يَقُولُهُ التِّلِمْسَانِيُّ لِشَيْخِ أَهْلِ الوَحْدَةِ[1]، يَقُولُ: ثَبَتَ عِنْدَنَا فِي الكَشْفِ مَا يُنَاقِضُ صَرِيحَ النَّقْلِ، وَيَقُولُونَ: لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْلُكَ سَبِيلَهُمْ: دَعِ العَقْلَ وَالنَّقْلَ، أَوِ اخْرُجْ مِنَ العَقْلِ وَالنَّقْلِ.

وَيُنْشِدُونَ فِيهِمْ:

مَجَانِينُ إِلَّا أَنَّ سِرَّ جُنُونِهِمْ ... عَزِيزٌ عَلَى أَقْدَامِهِ يَسْجُدُ العَقْلُ

هُمْ مَعْشَرٌ حَلُّوا النِّظَامَ وَحَرَّقُوا ... السِّيَاجَ فَلَا فَرْضَ لَدَيْهِمْ وَلَا نَقْلُ

وَهَؤُلَاءِ مُقَلِّدُونَ لِمَشَايِخِهِمْ مُتَّبِعُونَ لَهُمْ فِيمَا يَخْرُجُونَ بِهِ عَنْ شَرِيعَةِ الرَّسُولِ، وَمَا ابْتَدَعُوهُ مِمَّا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ بِاتِّخَاذِ البِدَعِ عِبَادَاتٍ، وَاسْتِحْلَالِ المُحَرَّمَاتِ كَتَقْلِيدِ بَعْضِ النَّصَارَى لِشُيُوخِهِمْ، وَإِذَا اعْتَرَضَ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ يَقُولُونَ: الشَّيْخُ يُسَلَّمُ لَهُ حَالُهُ، وَلَا يُعْتَرَضُ عَلَيْهِ كَمَا يَقُولُ النَّصَارَى لِشُيُوخِهِمْ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَقُولُ نَحْنُ أَوْلَادُ اللهِ، وَيَقُولُ: المَسِيحُ هُوَ وَلَدُ اللهِ، وَيَنْطِقُ أَيْضًا، بِلَفْظِ الشَّهْوَةِ، فَيَقُولُ إِنَّهُمْ أَوْلَادُ شَهْوَةٍ، وَيَقُولُ: إِنَّهُ زَوْجُ مَرْيَمَ، كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ مَنْ يَقُولُهُ مِنَ النَّصَارَى.

---

(١) **التلمساني**: هو سليمان بن علي بن عبد الله بن علي الكومي التلمساني عفيف الدين شاعر كوفي الأصل من تلمسان وهو من أهل وحدة الوجود ومن أتباع طريقة ابن عربي صاحب الفصوص، وشيخه القونوني، قيل إنه يميل إلى مذهب النصيرية. مات سنة ٦٩٠هـ، وله من العمر ثمانين سنة.
شيخ أهل وحدة الوجود: هو محمد بن علي بن عربي أبو بكر الحاتمي الطائي الأندلسي المعروف بمحيي الدين بن عربي، الملقب بالشيخ الأكبر، فيلسوف من أئمة المتكلمين في كل علم، ولد في مرسيه سنة ٥٦٠هـ، بالأندلس، انتقل إلى الشام وبلاد الروم والعراق والحجاز مارًا بمصر فأنكر عليه أهلها بعض الشطحات التي صدرت عنه فعمل بعضهم على إراقة دمه كالحلاج وحبس ثم تخلص فنجا واستقر في دمشق، ومات بها سنة ٦٣٨هـ، وهو شيخ أهل وحدة الوجود وكان ذكيًا حافظًا، وله مؤلفات صوفية كثيرة من أضخمها «الفتوحات المكية»، قال ابن كثير فيه ما يعقل وما لا يعقل وله كتاب «فصوص الحكم» فيه أشياء كثيرة ظاهرها كفر صريح وله تصانيف كثيرة غير ذلك.

وَغَايَةُ مَا عِنْدَهُمْ أَنَّهُمْ يَحْكُونَ عَنْ شُيُوخِهِمْ نَوْعًا مِنْ خَرْقِ العَادَاتِ، قَدْ يَكُونُ كَذِبًا، وَقَدْ يَكُونُ صِدْقًا، وَإِذَا كَانَتْ صِدْقًا فَقَدْ يَكُونُ مِنْ أَحْوَالِ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ كَالسَّحَرَةِ وَالكُهَّانِ، وَقَدْ يَكُونُ مِنْ أَحْوَالِ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ، وَإِذَا كَانَتْ مِنْ أَحْوَالِ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ مَا يُوجِبُ تَقْلِيدَ الوَلِيِّ فِي كُلِّ مَا يَقُولُهُ، إِذِ الوَلِيُّ لَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا، وَلَا يَجِبُ اتِّبَاعُهُ فِي كُلِّ مَا يَقُولُهُ، وَلَا الإِيمَانُ بِكُلِّ مَا يَقُولُهُ.

وَإِنَّمَا هَذَا مِنْ خَصَائِصِ الأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ يَجِبُ الإِيمَانُ بِكُلِّ مَا يَقُولُونَهُ فَيَجِبُ تَصْدِيقُهُمْ فِي كُلِّ مَا يُخْبِرُونَ بِهِ مِنَ الغَيْبِ، وَطَاعَتُهُمْ فِيمَا أَوْجَبُوهُ عَلَى الأُمَمِ، وَمَنْ كَفَرَ بِشَيْءٍ مِمَّا جَاءُوا بِهِ فَهُوَ كَافِرٌ، وَمَنْ سَبَّ نَبِيًّا وَاحِدًا وَجَبَ قَتْلُهُ، وَلَيْسَ هَذَا لِغَيْرِ الأَنْبِيَاءِ مِنَ الصَّالِحِينَ.

فَهَؤُلَاءِ المُبْتَدِعَةُ الغُلَاةُ المُشْرِكُونَ القَائِلُونَ بِنَوْعٍ مِنَ الحُلُولِ هُمْ مُضَاهِئُونَ لِلنَّصَارَى بِقَدْرِ مَا شَابَهُوهُمْ فِيهِ، وَخَالَفُوا فِيهِ دِينَ المُسْلِمِينَ وَمِنْهُمْ مَنْ تَكُونُ مُوَافَقَتُهُ لِدِينِ المُسْلِمِينَ أَكْثَرَ، وَأَمَّا الغُلَاةُ مِنْهُمْ فَمُوَافَقَتُهُمْ لِلنَّصَارَى أَكْثَرُ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ أَكْفَرُ مِنَ النَّصَارَى، وَلَمَّا كَانَ مُسْتَنَدُ النَّصَارَى هُوَ مَا يَنْقُلُونَهُ إِمَّا عَنِ الأَنْبِيَاءِ، وَإِمَّا عَنْ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ يُوجِبُونَ اتِّبَاعَهُ كَانُوا إِذَا أَوْرَدُوا عَلَى عُلَمَائِهِمْ مَا يَقْتَضِي امْتِنَاعَ ذَلِكَ قَالُوا هَكَذَا فِي الكِتَابِ، وَبِهَذَا نَطَقَ الكِتَابُ وَهَذِهِ الكُتُبُ جَاءَتْ بِهَا الرُّسُلُ، يَعْنُونَ المُؤَيَّدِينَ بِالمُعْجِزَاتِ، وَيَعْنُونَ بِالرُّسُلِ الحَوَارِيِّينَ فَاعْتِصَامُهُمْ بِهَا إِنَّمَا هُوَ لِمَا ظَنُّوهُ مَذْكُورًا فِي الكُتُبِ الإِلَهِيَّةِ، وَإِنْ رَأَوْهُ مُخَالِفًا لِصَرِيحِ المَعْقُولِ.

وَلِهَذَا يَنْهَوْنَ جُمْهُورَهُمْ عَنِ البَحْثِ وَالمُنَاظَرَةِ فِي ذَلِكَ، لِعِلْمِهِمْ بِأَنَّ العَقْلَ الصَّرِيحَ مَتَى تَصَوَّرَ دِينَهُمْ عَلِمَ أَنَّهُ بَاطِلٌ، فَدَعْوَى المُدَّعِينَ أَنَّا إِنَّمَا قُلْنَا أَبٌ وَابْنٌ وَرُوحُ قُدُسٍ لِتَصْحِيحِ القَوْلِ بِأَنَّ اللهَ حَيٌّ نَاطِقٌ كَذِبٌ ظَاهِرٌ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ كَذِبٌ، وَتَصْحِيحُ القَوْلِ بِأَنَّ اللهَ حَيٌّ مُتَكَلِّمٌ، لَا يَقِفُ عَلَى هَذِهِ العِبَارَةِ، بَلْ يُمْكِنُهُ تَصْحِيحُ ذَلِكَ بِالأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ

وَالسَّمْعِيَّةِ وَالعَقْلِيَّةِ، وَالتَّعْبِيرُ عَنْهُ بِالعِبَارَاتِ البَيِّنَةِ كَمَا يَقُولُهُ المُسْلِمُونَ وَغَيْرُهُمْ بِدُونِ قَوْلِنَا أَبٌ وَابْنٌ وَرُوحُ قُدُسٍ.

وَمِمَّا يُبَيِّنُ ذَلِكَ الوَجْهُ الثَّانِي- وَهُوَ أَنَّ النَّصَارَى - المُقِرُّونَ بِأَنَّ هَذِهِ العِبَارَةَ فِي الإِنْجِيلِ المَأْخُوذِ عَنِ المَسِيحِ - مُخْتَلِفُونَ فِي تَفْسِيرِ هَذَا الكَلَامِ، فَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَقُولُ الأَبُ هُوَ الوُجُودُ، وَالِابْنُ هُوَ الكَلِمَةُ، وَرُوحُ القُدُسِ هُوَ الحَيَاةُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: بَلِ الأَبُ هُوَ الوُجُودُ، وَالِابْنُ هُوَ الكَلِمَةُ، وَرُوحُ القُدُسِ هُوَ القُدْرَةُ.

وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: إِنَّ الأَقَانِيمَ الثَّلَاثَةَ: جَوَادٌ حَكِيمٌ قَادِرٌ، فَيُجْعَلُ الأَبُ هُوَ الجَوَادَ، وَالِابْنُ هُوَ الحَكِيمَ، وَرُوحُ القُدُسِ هُوَ القَادِرَ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ جَمِيعَ الصِّفَاتِ تَدْخُلُ تَحْتَ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّا اسْتَدْلَلْنَا عَلَى وُجُودِهِ بِإِخْرَاجِهِ الأَشْيَاءَ مِنَ العَدَمِ إِلَى الوُجُودِ، وَذَلِكَ مِنْ جُودِهِ.

وَقَدْ رَأَيْتُ فِي كُتُبِ النَّصَارَى هَذَا وَهَذَا وَهَذَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعَبِّرُ عَنِ الكَلِمَةِ بِالعِلْمِ، فَيَقُولُونَ: مَوْجُودٌ حَيٌّ عَالِمٌ، أَوْ مَوْجُودٌ عَالِمٌ قَادِرٌ، كَمَا يَقُولُ بَعْضُهُمْ: نَاطِقٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ مَوْجُودٌ حَيٌّ حَكِيمٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ حَيٌّ حَكِيمٌ، وَهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ المُتَّحِدَ بِالمَسِيحِ وَالحَالَّ فِيهِ هُوَ أُقْنُومُ الكَلِمَةِ، وَهُوَ الَّذِي يُسَمُّونَهُ الِابْنَ دُونَ الأَبِ، وَمَنْ أَنْكَرَ الحُلُولَ وَالِاتِّحَادَ مِنْهُمْ كَالأَرْيُوسِيَّةِ يَقُولُ: إِنَّ المَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَبْدٌ مُرْسَلٌ، كَسَائِرِ الرُّسُلِ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ -، فَوَافَقَهُمْ عَلَى لَفْظِ: الأَبِ، وَالِابْنِ، وَرُوحِ القُدُسِ، وَلَا يُفَسِّرُ ذَلِكَ بِمَا يَقُولُهُ مُنَازِعُوهُ مِنَ الحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ.

كَمَا أَنَّ النَّسْطُورِيَّةَ يُوَافِقُونَهُمْ أَيْضًا عَلَى هَذَا اللَّفْظِ، وَيُنَازِعُونَهُمْ فِي الِاتِّحَادِ الَّذِي يَقُولُهُ اليَعْقُوبِيَّةُ وَالمَلَكِيَّةُ: فَإِذَا كَانُوا مُتَّفِقِينَ عَلَى اللَّفْظِ مُتَنَازِعِينَ فِي مَعْنَاهُ، عُلِمَ أَنَّهُمْ صَدَقُوا أَوَّلًا بِاللَّفْظِ لِأَجْلِ اعْتِقَادِهِمْ مَجِيءَ الشَّرْعِ بِهِ، ثُمَّ تَنَازَعُوا بَعْدَ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ الكِتَابِ،

كَمَا يَخْتَلِفُونَ هُمْ وَسَائِرُ أَهْلِ المِلَلِ فِي تَفْسِيرِ بَعْضِ الكَلَامِ الَّذِي يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ مَنْقُولٌ عَنِ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَعُلِمَ بِذَلِكَ أَنَّ أَصْلَ قَوْلِهِمُ: الأَبُ، وَالِابْنُ، وَرُوحُ القُدُسِ، لَمْ يَكُنْ لِأَجْلِ تَصْحِيحِ القَوْلِ بِأَنَّ اللهَ مَوْجُودٌ حَيٌّ نَاطِقٌ الَّذِي عَلِمُوهُ أَوَّلًا بِالعَقْلِ.

يُوَضِّحُ هَذَا الوَجْهُ الثَّالِثُ- وَهُوَ قَوْلُهُمْ إِنَّمَا لَمَّا رَأَيْنَا حُدُوثَ الأَشْيَاءِ عَلِمْنَا أَنَّ شَيْئًا غَيْرَهَا أَحْدَثَهَا، إِنْ كَانَ المُتَكَلِّمُ بِهَذَا طَائِفَةً مُعَيَّنَةً مِنَ النَّصَارَى، فَيُقَالُ لِهَؤُلَاءِ: القَوْلُ بِالأَبِ، وَالِابْنِ، وَرُوحِ القُدُسِ، مَوْجُودٌ عِنْدَ النَّصَارَى قَبْلَ وُجُودِكُمْ، وَقَبْلَ نَظَرِكُمْ هَذَا وَاسْتِدْلَالِكُمْ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نَظَرُكُمْ هُوَ المُوجِبَ لِقَوْلِ النَّصَارَى هَذَا، وَإِنْ كَانَ المُرَادُ بِهِ أَنَّ جَمِيعَ النَّصَارَى مِنْ حِينِ قَالُوا هَذَا الكَلَامَ نَظَرُوا وَاسْتَدَلُّوا حَتَّى قَالُوا ذَلِكَ فَهَذَا كَذِبٌ بَيِّنٌ، فَإِنَّ هَذَا الكَلَامَ يَقُولُ النَّصَارَى إِنَّهُمْ تَلَقَّوْهُ مِنَ الإِنْجِيلِ، وَأَنَّ المَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: عَمِّدُوا النَّاسَ بِاسْمِ الأَبِ، وَالِابْنِ، وَرُوحِ القُدُسِ.

وَالمَسِيحُ وَالحَوَارِيُّونَ لَمْ يَأْمُرُوهُمْ بِهَذَا النَّظَرِ المُوجِبِ لِهَذَا القَوْلِ، وَلَا جَعَلَ المَسِيحُ هَذَا القَوْلَ مَوْقُوفًا عِنْدَهُمْ عَلَى هَذَا البَحْثِ، فَعُلِمَ أَنَّ جَعْلَهُمْ هَذَا القَوْلَ نَاشِئًا عَنْ هَذَا البَحْثِ قَوْلٌ بَاطِلٌ يَعْلَمُونَ هُمْ بُطْلَانَهُ.

الوَجْهُ الرَّابِعُ- إِنَّ هَذَا القَوْلَ: إِنْ كَانَ المَسِيحُ لَمْ يَقُلْهُ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ، وَلَوْ عَنَى بِهِ الإِنْسَانُ مَعْنًى صَحِيحًا فَإِنَّ هَذِهِ العِبَارَةَ إِنَّمَا يُفْهَمُ مِنْهَا عِنْدَ الإِطْلَاقِ المَعَانِي البَاطِلَةَ، وَلِهَذَا يُوجَدُ كَثِيرٌ مِنْ عَوَامِّ النَّصَارَى يَعْتَقِدُونَ أَنَّ المَسِيحَ ابْنُ اللهِ، البُنُوَّةَ المَعْرُوفَةَ فِي المَخْلُوقَاتِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ مَرْيَمَ زَوْجَةُ اللهِ وَهَذَا لَازِمٌ لِعَامَّةِ النَّصَارَى، وَإِنْ لَمْ يَقُولُوهُ فَإِنَّ الَّذِي يَلِدُ لَابُدَّ لَهُ مِنْ زَوْجَةٍ.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

وَجَعْلُ الرَّبِّ وَالِدَ المَوْلُودِ أَنْكَرُ فِي العُقُولِ مِنْ إِثْبَاتِ صَاحِبَةٍ لَهُ سَوَاءً فُسِّرَتِ الوِلَادَةُ بِالوِلَادَةِ المَعْرُوفَةِ، أَوْ بِالوِلَادَةِ العَقْلِيَّةِ الَّتِي يَقُولُهَا عُلَمَاءُ النَّصَارَى، فَإِنَّ مَنْ أَثْبَتَ صَاحِبَةً لَهُ يُمْكِنُهُ تَأْوِيلُ ذَلِكَ، كَمَا تَأَوَّلُوا هُمُ الوَلَدَ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ الأَبَ وُلِدَتْ مِنْهُ الكَلِمَةُ، وَمَرْيَمُ وُلِدَ مِنْهَا النَّاسُوتُ وَاتَّحَدَ النَّاسُوتُ بِاللَّاهُوتِ، فَكَمَا أَنَّ الأَبَ أَبٌ بِاللَّاهُوتِ لَا بِالنَّاسُوتِ، وَمَرْيَمَ أُمٌّ لِلنَّاسُوتِ لَا لِلَّاهُوتِ، فَكَذَلِكَ هِيَ صَاحِبَةٌ لِلْأَبِ بِالنَّاسُوتِ، وَاللَّاهُوتُ زَوْجُ مَرْيَمَ، بِلَاهُوتِهِ، كَمَا أَنَّهُ أَبٌ لِلْمَسِيحِ بِلَاهُوتِهِ، وَإِذَا اتَّحَدَ اللَّاهُوتُ بِنَاسُوتِ المَسِيحِ مُدَّةً طَوِيلَةً، فَلِمَاذَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَجْتَمِعَ اللَّاهُوتُ بِنَاسُوتِ مَرْيَمَ مُدَّةً قَصِيرَةً، وَإِذَا جُعِلَ النَّاسُوتُ الَّذِي وَلَدَتْهُ ابْنًا لِلَّاهُوتِ، فَلِأَيِّ شَيْءٍ لَا تُجْعَلُ هِيَ صَاحِبَةً وَزَوْجَةً لِلَّاهُوتِ فَإِنَّ المَسِيحَ عِنْدَهُمُ اسْمٌ لِمَجْمُوعِ اللَّاهُوتِ وَالنَّاسُوتِ، وَهُوَ عِنْدَهُمْ إِلَهٌ تَامٌّ وَإِنْسَانٌ تَامٌّ، فَلَاهُوتُهُ مِنَ اللهِ، وَنَاسُوتُهُ مِنْ مَرْيَمَ، فَهُوَ مِنْ أَصْلَيْنِ: لَاهُوتٌ وَنَاسُوتٌ، فَإِذَا كَانَ أَحَدُ الأَصْلَيْنِ أَبَاهُ وَالآخَرُ أُمَّهُ، فَلِمَاذَا لَا تَكُونُ أُمُّهُ زَوْجَةَ أَبِيهِ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ، مَعَ أَنَّ المُصَاحَبَةَ قَبْلَ البُنُوَّةِ؟ فَكَيْفَ يَثْبُتُ الفَرْعُ المَلْزُومُ بِدُونِ ثُبُوتِ الأَصْلِ اللَّازِمِ؟

وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ مِنَ المُحَالِ عَلَى أَصْلِهِمْ إِلَّا مَا هُوَ مِنْ جِنْسِ إِثْبَاتِ بُنُوَّةِ المَسِيحِ، وَأَقَلُّ امْتِنَاعًا، وَإِنْ كَانَ المَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ هَذَا الكَلَامَ، فَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ المَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَغَيْرَهُ مِنَ الأَنْبِيَاءِ مَعْصُومُونَ لَا يَقُولُونَ: إِلَّا الحَقَّ، وَإِذَا قَالُوا قَوْلًا فَلَابُدَّ لَهُ مِنْ مَعْنًى صَحِيحٍ.

وَيَمْتَنِعُ أَنْ يُرِيدُوا بِقَوْلِهِمْ مَا يَمْتَنِعُ بُطْلَانُهُ بِسَمْعٍ أَوْ عَقْلٍ فَإِذَا كَانَتِ العُقُولُ، وَنُصُوصُ الكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ مَعَ نُصُوصِ القُرْآنِ تُنَاقِضُ مَا ابْتَدَعَتْهُ النَّصَارَى فِي المَسِيحِ، عُلِمَ أَنَّ المَسِيحَ لَمْ يُرِدْ مَعْنًى بَاطِلًا يُخَالِفُ صَرِيحَ المَعْقُولِ وَصَحِيحَ المَنْقُولِ.

بَلْ نَقُولُ فِي الوَجْهِ الخَامِسِ- إِنْ صَحَّتْ هَذِهِ العِبَارَةُ عَنِ المَسِيحِ المَعْصُومِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَإِنَّهُ أَرَادَ بِذَلِكَ مَا يُنَاسِبُ سَائِرَ كَلَامِهِ، وَفِي المَوْجُودِ فِي كُتُبِهِمْ تَسْمِيَةُ

الرَّبِّ أَبًا وَتَسْمِيَةُ عِبَادِهِ أَبْنَاءً، كَمَا يَذْكُرُونَ أَنَّهُ قَالَ فِي التَّوْرَاةِ لِيَعْقُوبَ «إِسْرَائِيلُ»: «أَنْتَ ابْنِي بِكْرِي»، وَقَالَ لِدَاوُدَ فِي الزَّبُورِ: «أَنْتَ ابْنِي وَحَبِيبِي»، وَفِي الإِنْجِيلِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ يَقُولُ المَسِيحُ: «أَبِي وَأَبِيكُمْ» كَقَوْلِهِ: «إِنِّي أَذْهَبُ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ وَإِلَهِي وَإِلَهِكُمْ» فَيُسَمِّيهِ أَبًا لَهُمْ كَمَا يُسَمِّيهِمْ أَبْنَاءً لَهُ، فَإِنْ كَانَ هَذَا صَحِيحًا، فَالْمُرَادُ بِذَلِكَ أَنَّهُ الرَّبُّ الْمُرَبِّي الرَّحِيمُ، فَإِنَّ اللهَ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنَ الوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا، وَالِابْنُ هُوَ الْمُرَبَّى الْمَرْحُومُ، فَإِنَّ تَرْبِيَةَ اللهِ لِعَبْدِهِ أَكْمَلُ مِنْ تَرْبِيَةِ الوَالِدَةِ لِوَلَدِهَا فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِالأَبِ الرَّبَّ، وَالْمُرَادُ بِالِابْنِ عِنْدَهُ المَسِيحَ الَّذِي رَبَّاهُ.

وَأَمَّا رُوحُ القُدُسِ: فَهِيَ لَفْظَةٌ مَوْجُودَةٌ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الكُتُبِ الَّتِي عِنْدَهُمْ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهَا حَيَاةَ اللهِ بِاتِّفَاقِهِمْ، بَلْ رُوحُ القُدُسِ عِنْدَهُمْ تَحِلُّ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَدَاوُدَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الأَنْبِيَاءِ الصَّالِحِينَ.

وَالقُرْآنُ قَدْ شَهِدَ أَنَّ اللهَ أَيَّدَ المَسِيحَ بِرُوحِ القُدُسِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البَقَرَة: ٨٧].

فِي مَوْضِعَيْنِ مِنَ البَقَرَةِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [المَائِدَة: ١١٠].

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِحَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ: «**إِنَّ رُوحَ القُدُسِ مَعَكَ مَا دُمْتَ تُنَافِحُ عَنْ نَبِيِّهِ**» وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ القُدُسِ**»(١) كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ هَذَا كُلُّهُ مَبْسُوطًا.

وَرُوحُ القُدُسِ: قَدْ يُرَادُ بِهَا المَلَكُ المُقَدَّسُ كَجِبْرِيلَ، وَيُرَادُ بِهَا الوَحْيُ، وَالهُدَى وَالتَّأْيِيدُ الَّذِي يُنْزِلُهُ اللهُ بِوَاسِطَةِ المَلَكِ أَوْ بِغَيْرِ وَاسِطَتِهِ، وَقَدْ يَكُونَانِ مُتَلَازِمَيْنِ، فَإِنَّ المَلَكَ

(١) سبق تخريجه.

يَنْزِلُ بِالوَحْيِ، وَالوَحْيُ يَنْزِلُ بِهِ المَلَكُ، وَاللهُ تَعَالَى يُؤَيِّدُ رُسُلَهُ بِالمَلَائِكَةِ وَبِالهُدَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التَّوبَة: ٤٠]. فِي مَوْضِعَيْنِ مِنْ سُورَةِ «بَرَاءَةٌ».

وَ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأَحزَاب: ٩].

وَ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأَنفَال: ١٢].

وَ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المُجَادِلَة: ٢٢].

وَ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النَّحل: ٢].

وَ قَالَ تَعَالَى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غَافِر: ١٥].

وَقَالَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشُّورَى: ٥٢].

وَإِذَا كَانَ رُوحُ القُدُسِ مَعْرُوفًا فِي كَلَامِ الأَنْبِيَاءِ المُتَقَدِّمِينَ وَالمُتَأَخِّرِينَ أَنَّهَا أَمْرٌ يُنَزِّلُهُ اللهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ وَصَالِحِي عِبَادِهِ سَوَاءً كَانَ مَلَائِكَةً تَنَزَّلُ بِالوَحْيِ وَالنَّصْرِ أَوْ وَحْيًا وَتَأْيِيدًا مَعَ المَلَكِ، وَبِدُونِ المَلَكِ لَيْسَ المُرَادُ بِرُوحِ القُدُسِ أَنَّهَا حَيَاةُ اللهِ القَائِمَةُ بِهِ كَانَ المَعْصُومُ إِنْ كَانَ قَالَ: عَمِّدُوا النَّاسَ بِاسْمِ الأَبِ وَالِابْنِ وَرُوحِ القُدُسِ مُرَادُهُ مُرُوا النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ وَنَبِيِّهِ الَّذِي أَرْسَلَهُ وَبِالمَلَكِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ الوَحْيَ الَّذِي جَاءَ بِهِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَمْرًا لَهُمْ بِالإِيمَانِ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَهَذَا هُوَ الحَقُّ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ صَرِيحُ المَعْقُولِ وَصَحِيحُ المَنْقُولِ.

obeikandi.com

فَتَفْسِيرُ كَلَامِ المَعْصُومِ بِهَذَا التَّفْسِيرِ الَّذِي يُوَافِقُ سَائِرَ أَلْفَاظِ الكُتُبِ الَّتِي عِنْدَهُمْ، وَيُوَافِقُ القُرْآنَ، وَيُوَافِقُ العَقْلَ، أَوْلَى مِنْ تَفْسِيرِهِ بِمَا يُخَالِفُ صَرِيحَ المَعْقُولِ وَصَحِيحَ المَنْقُولِ.

وَهَذَا تَفْسِيرٌ ظَاهِرٌ لَيْسَ فِيهِ تَكَلُّفٌ، وَلَا هُوَ مِنَ التَّأْوِيلِ الَّذِي هُوَ صَرْفُ الكَلَامِ عَنْ ظَاهِرِهِ إِلَى مَا يُخَالِفُ ظَاهِرَهُ، بَلْ هُوَ تَفْسِيرٌ لَهُ بِمَا يَدُلُّ ظَاهِرُهُ عَلَيْهِ بِاللُّغَةِ المَعْرُوفَةِ وَالعِبَارَةِ المَأْلُوفَةِ فِي خِطَابِ المَسِيحِ، وَخِطَابِ سَائِرِ الأَنْبِيَاءِ.

أَمَّا تَفْسِيرُ النَّصَارَى بِأَنَّ الِابْنَ مَوْلُودٌ قَدِيمٌ أَزَلِيٌّ هُوَ العِلْمُ أَوْ كَلِمَةُ اللهِ، فَتَفْسِيرٌ لِلَّفْظِ بِمَا لَمْ يُسْتَعْمَلْ هَذَا اللَّفْظُ فِيهِ، لَا فِي كَلَامِ أَحَدٍ مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَلَا لُغَةِ أَحَدٍ مِنَ الأَنْبِيَاءِ، وَكَذَلِكَ تَفْسِيرُ رُوحِ القُدُسِ بِحَيَاةِ اللهِ، فَالَّذِي فَسَّرَ النَّصَارَى بِهِ ظَاهِرَ كَلَامِ المَسِيحِ هُوَ تَفْسِيرٌ لَا تَدُلُّ عَلَيْهِ لُغَةُ المَسِيحِ وَعَادَتُهُ فِي كَلَامِهِ، وَلَا لُغَةُ غَيْرِهِ مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَالأُمَمِ، بَلِ المَعْرُوفُ فِي لُغَتِهِ وَكَلَامِهِ وَكَلَامِ سَائِرِ الأَنْبِيَاءِ تَفْسِيرُهُ بِمَا فَسَّرْنَاهُ، وَبِذَلِكَ فَسَّرَهُ أَكَابِرُ عُلَمَاءِ النَّصَارَى.

وَأَمَّا ضُلَّالُ النَّصَارَى المُحَرِّفُونَ لِمَعَانِي كُتُبِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَسَّرُوهُ بِمَا يُخَالِفُ مَعْنَاهُ الظَّاهِرَ وَيُنْكِرُهُ العَقْلُ وَالشَّرْعُ.

وَتَمَامُ هَذَا بِالوَجْهِ السَّادِسِ- وَهُوَ أَنَّ النَّصَارَى لَمَّا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي الكُتُبِ تَسْمِيَةُ المَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ابْنًا، وَتَسْمِيَةُ غَيْرِهِ مِنَ الأَنْبِيَاءِ ابْنًا، كَقَوْلِهِ لِيَعْقُوبَ: أَنْتَ ابْنِي بِكْرِي، وَتَسْمِيَةُ الحَوَارِيِّينَ أَبْنَاءً قَالُوا هُوَ ابْنُهُ بِالطَّبْعِ، وَغَيْرُهُ هُوَ ابْنُهُ بِالوَضْعِ، فَجَعَلُوا لَفْظَ الِابْنِ مُشْتَرَكًا بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ وَأَثْبَتُوا للهِ طَبْعًا، جَعَلُوا المَسِيحَ ابْنَهُ بِاعْتِبَارِ ذَلِكَ الطَّبْعِ، وَهَذَا يُقَرِّرُ قَوْلَ مَنْ يَفْهَمُ مِنْهُمْ أَنَّهُ ابْنُهُ البُنُوَّةَ المَعْرُوفَةَ فِي المَخْلُوقِينَ، وَأَنَّ مَرْيَمَ زَوْجَةُ اللهِ.

وَكَذَلِكَ جَعَلُوا رُوحَ القُدُسِ مُشْتَرَكَةً بَيْنَ حَيَاةِ اللهِ وَبَيْنَ رُوحِ القُدُسِ الَّتِي تَنْزِلُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الِاشْتِرَاكَ عَلَى خِلَافِ الأَصْلِ وَأَنَّ اللَّفْظَ إِذَا اسْتُعْمِلَ فِي

عِدَّةِ مَوَاضِعَ كَانَ جَعْلُهُ حَقِيقَةً مُتَوَاطِئًا فِي القَدْرِ المُشْتَرَكِ أَوْلَى مِنْ جَعْلِهِ مُشْتَرَكًا اشْتِرَاكًا لَفْظِيًّا بِحَيْثُ يَكُونُ حَقِيقَةً فِي خُصُوصِ هَذَا، أَوْ يَكُونُ مَجَازًا فِي أَحَدِهِمَا، فَإِنَّ المَجَازَ وَالِاشْتِرَاكَ عَلَى خِلَافِ الأَصْلِ، هَذَا إِنْ قُدِّرَ أَنَّ لَفْظَ الِابْنِ وَرُوحِ القُدُسِ اسْتُعْمِلَ فِي نُطْقِ اللهِ وَحَيَاتِهِ كَمَا يَزْعُمُ النَّصَارَى فَكَيْفَ إِذَا لَمْ يُوجَدْ فِي كَلَامِ الأَنْبِيَاءِ أَنَّهُمْ قَالُوا لَفْظُ الِابْنِ، وَلَفْظُ رُوحِ القُدُسِ، وَأَرَادُوا بِهِ شَيْئًا مِنْ صِفَاتِ اللهِ لَا كَلَامِهِ وَلَا حَيَاتِهِ وَلَا عِلْمِهِ وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ، بَلْ لَمْ يُوجَدِ اسْتِعْمَالُ لَفْظِ الِابْنِ فِي كَلَامِ الأَنْبِيَاءِ إِلَّا فِي شَيْءٍ مَخْلُوقٍ، وَلَمْ يُوجَدِ اسْتِعْمَالُ رُوحِ القُدُسِ كَمَا هُوَ مِنْ صِفَاتِ اللهِ القَائِمَةِ بِهِ، وَنَحْنُ إِذَا فَسَّرْنَا الأَبَ وَرُوحَ القُدُسِ بِنُبُوَّةِ التَّرْبِيَةِ، وَرُوحَ القُدُسِ بِمَا يَنْزِلُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ كُنَّا قَدْ جَعَلْنَا اللَّفْظَ مُفْرَدًا مُتَوَاطِئًا وَهُمْ يَحْتَاجُونَ أَنْ يَجْعَلُوا اللَّفْظَ مُشْتَرَكًا أَوْ مَجَازًا فِي أَحَدِ المَعْنَيَيْنِ، فَكَانَ تَفْسِيرُهُمْ مُخَالِفًا لِظَاهِرِ اللُّغَةِ الَّتِي خُوطِبُوا بِهَا، وَلِظَاهِرِ الكُتُبِ الَّتِي بِأَيْدِيهِمْ وَتَفْسِيرُنَا مُوَافِقًا لِظَاهِرِ لُغَتِهِمْ، وَظَاهِرِ الكُتُبِ الَّتِي بِأَيْدِيهِمْ، وَحِينَئِذٍ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّهُ لَيْسَ مَعَهُمْ بِالتَّثْلِيثِ لَا حُجَّةٌ سَمْعِيَّةٌ وَلَا عَقْلِيَّةٌ، بَلْ هُوَ بَاطِلٌ شَرْعًا وَعَقْلًا.

وَيُؤَيِّدُ هَذَا الوَجْهُ السَّابِعُ- وَهُوَ أَنَّهُمْ فِي أَمَانَتِهِمْ أَثْبَتُوا مِنَ المَعَانِي وَلَفْظِ الأَقَانِيمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مَا لَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الكُتُبُ الَّتِي بِأَيْدِيهِمُ البَتَّةَ، بَلْ فَهِمُوا مِنْهَا مَعْنًى بَاطِلًا، وَضَمُّوا إِلَيْهِ مَعَانِيَ بَاطِلَةً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، فَكَانُوا مُحَرِّفِينَ لِكُتُبِ اللهِ فِي ذَلِكَ، مُفْتَرِينَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ، وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ.

الوَجْهُ الثَّامِنُ- أَنَّ قَوْلَهُمْ بِالأَقَانِيمِ مَعَ بُطْلَانِهِ فِي العَقْلِ وَالشَّرْعِ لَمْ يَنْطِقْ بِهِ عِنْدَهُمْ كِتَابٌ، وَلَمْ يُوجَدْ هَذَا اللَّفْظُ فِي شَيْءٍ مِنْ كُتُبِ الأَنْبِيَاءِ الَّتِي بِأَيْدِيهِمْ وَلَا فِي كَلَامِ الحَوَارِيِّينَ، بَلْ هِيَ لَفْظَةٌ ابْتَدَعُوهَا، وَيُقَالُ: إِنَّهَا رُومِيَّةٌ، وَقَدْ قِيلَ: الأُقْنُومُ فِي لُغَتِهِمْ مَعْنَاهُ الأَصْلُ، وَلِهَذَا يَضْطَرِبُونَ فِي تَفْسِيرِ الأَقَانِيمِ تَارَةً يَقُولُونَ: أَشْخَاصٌ، وَتَارَةً خَوَاصُّ وَتَارَةً صِفَاتٌ وَتَارَةً جَوَاهِرُ وَتَارَةً يَجْعَلُونَ الأُقْنُومَ اسْمًا لِلذَّاتِ وَالصِّفَةِ مَعًا، وَهَذَا تَفْسِيرُ حُذَّاقِهِمْ.

الوَجْـهُ التّاسِـعُ- قَوْلُهُمْ فِي المَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّـهُ خَالِقٌ، قَوْلٌ مَـعَ بُطْلَانِهِ فِي الشَّرْعِ وَالعَقْلِ، قَوْلٌ لَمْ يَنْطِقْ بِهِ شَيْءٌ مِنَ النُّبُوَّاتِ الَّتِي عِنْدَهُمْ، وَلَكِنْ يَسْـتَدِلُّونَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ كَمَا سَنُبَيِّنُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

الوَجْهُ العَاشِـرُ- قَوْلُهُمْ فِي تَجَسُّـدِ اللَّاهُوتِ - أَيْضًا - هُوَ قَوْلٌ مَعَ بُطْلَانِهِ فِي العَقْلِ وَالشَّرْعِ قَوْلٌ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ المَعْصُومِ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالمُرْسَلِينَ

الوَجْهُ الحَادِي عَشَـرَ- إِنَّا نَقُولُ: لَا رَيْبَ أَنَّ اللهَ حَيٌّ عَالِمٌ قَادِرٌ مُتَكَلِّمٌ، وَلِلْمُسْلِمِينَ عَـلَى ذَلِـكَ مِنَ الدَّلَائِـلِ العَقْلِيَّةِ الَّتِي دَلَّ الرَّسُـولُ عَلَيْهَا وَأَرْشَـدَ إِلَيْهَا فَصَـارَتْ مَعْرُوفَةً بِالعَقْـلِ مَدْلُولًا عَلَيْهَا بِالشَّرْعِ مَا هُوَ مَبْسُـوطٌ فِي مَوْضِعِهِ، وَأَنْتُمْ مَعَ دَعْوَاكُمْ أَنَّكُمْ تُثْبِتُونَ ذَلِكَ بِالعَقْلِ، لَمْ تَذْكُرُوا عَلَى ذَلِكَ دَلِيلًا عَقْلِيًّا.

فَقَوْلُكُمْ لَمَّا رَأَيْنَا حُدُوثَ الأَشْيَاءِ عَلِمْنَا أَنَّ شَيْئًا غَيْرَهَا أَحْدَثَهَا إِذْ لَا يُمْكِنُ حُدُوثُهَا مِنْ ذَوَاتِهَا لِمَا فِيهَا مِنَ التَّضَادِّ وَالتَّقَلُّبِ، كَلَامٌ قَاصِرٌ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَـا- أَنَّكُـمْ لَمْ تَـرَوْا حُدُوثَ جَمِيعِ المَخْلُوقَـاتِ، وَإِنَّـمَا رَأَيْتُمْ حُدُوثَ مَا يُشْـهَدُ حُدُوثُهُ كَالسَّحَابِ وَالمَطَرِ وَالحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَأَيْنَ دَلِيلُكُمْ عَلَى حُدُوثِ سَائِرِ الأَشْيَاءِ؟

الثّانِي- أَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَقُولُوا لَمَّا عُلِمَ حُدُوثُ المُحْدَثَاتِ، أَوْ حُدُوثُ المَخْلُوقَاتِ أَوْ حُدُوثُ مَا سِوَى اللهِ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ المُحْدَثَ مَا سِوَى اللهِ، فَأَمَّا إِطْلَاقُ حُدُوثِ جَمِيعِ الأَشْـيَاءِ فَبَاطِلٌ، فَإِنَّ اللهَ يُسَـمَّى عِنْدَكُمْ وَعِنْدَ جُمْهُورِ المُسْـلِمِينَ شَـيْئًا مِنَ الأَشْـيَاءِ، وَهَذَا بِخِلَافِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرَّعْدِ: ١٦].

فَـإِنَّ هَـذَا التَّرْكِيـبَ يُبَـيِّنُ أَنَّ الخَالِـقَ غَـيْرُ المَخْلُوقِ خِـلَافَ قَـوْلِ القَائِـلِ حُدُوثِ الأَشْيَاءِ.

الثَّالِثُ- أَنَّ العِلْمَ بِأَنَّ المُحْدَثَ لَابُدَّ لَهُ مِنْ مُحْدِثٍ، عِلْمٌ فِطْرِيٌّ ضَرُورِيٌّ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي القُرْآنِ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥].

قَالَ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ: (لَمَّا سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ بِهَا فِي صَلَاةِ المَغْرِبِ أَحْسَسْتُ بِفُؤَادِي قَدِ انْصَدَعَ)(١)، يَقُولُ تَعَالَى: أَخُلِقُوا مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ خَلَقَهُمْ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ لِأَنْفُسِهِمْ.

---

(١) أخرجه من غير ذكر الآية بنحوه أحمد (٤/ ٨٣) والطيالسي [٩٤٣] وأبو يعلى [٧٤٠٧] والطبراني في «الكبير» [١٥٩٥] من طريق شعبة عن سعد بن إبراهيم قال: سمعت بعض إخواني عن أبي عن جبير بن مطعم بنحوه.
وإسناده ضعيف لإبهام الراوي الذي سمع منه سعد بن إبراهيم ورواه الطيالسي عن شعبة عند الطبراني [١٥٩٦] فأسقط الواسطة المبهمة وقال عن سعد عن أبيه، به.
ورواه أبو يعلى [٧٤١٨] فأسقط عن أبيه.
وأخرجه أبو عبيد في «الأموال» [٣٠٢] وابن زنجويه في «الأموال» [٤٦٢] والطحاوي في «شرح المعاني» (١/ ٢١٢) والطبراني [١٤٩٩] وابن عبد البر في «التمهيد» (٩/ ١٤٩) من طريق هُشيم عن سفيان بن حسين عن الزهري عن محمد بن جبير عن أبيه، به، وذكر هذه الآية ﴿إن عذاب ربك لواقع﴾ فكأنما صدع قلبي ... الحديث.
والإسناد ضعيف، وقال هُشيم: ولا أظنني إلا وقد سمعته عن الزهري عن محمد عن أبيه... ورواية هشيم عن الزهري ضعيفة كما أن رواية سفيان بن حسين ضعيفة.
وأخرجه ابن عبد البر (٩/ ١٤٩) من طريق ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن ابن شهاب، به.
وابن لهيعة ضعيف ويزيد فيه تدليس وقد عنعنه.
لكن أخرج الحميدي [٥٥٦] وابن أبي شيبة (١/ ٥٣٧) وأحمد (٤/ ٨٠) والبخاري [٤٨٥٤] ومسلم [٤٦٣] والدارمي (١/ ٢٩٦) وابن خزيمة [٥١٤] وابن ماجه [٨٣٢] وأبو يعلى [٧٣٩٣] وأبو عوانة (٢/ ١٥٣) والطبراني في «الكبير» [١٤٩٤] والبيهقي (٢/ ١٩٣) وابن عبد البر في «التمهيد» (١٩/ ١٤٧) من طريق سفيان بن عيينة عن الزهري عن محمد بن جبير عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور.
وخالف ابن عيينة أسامة بن زيد الليثي فرواه الطبراني [١٤٩٨] من طريقه عن الزهري بهذا الإسناد قال: فوافقت رسول الله ﷺ يقرأ في صلاة المغرب ﴿**والطور وكتابٍ مسطور**﴾ قال: فأخذني في قراءته الكرب فكان ذلك أول ما سمعت من أمر الإسلام.
وإسناده ضعيف لأجل أسامة.

وَمَعْلُومٌ بِالفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ اللهُ عَلَيْهَا عِبَادَهُ بِصَرِيحِ العَقْلِ أَنَّ الحَادِثَ لَا يَحْدُثُ إِلَّا بِمُحْدِثٍ أَحْدَثَهُ.

وَإِنَّ حُدُوثَ الحَادِثِ بِلَا مُحْدِثٍ أَحْدَثَهُ مَعْلُومُ البُطْلَانِ بِضَرُورَةِ العَقْلِ وَهَذَا أَمْرٌ مَرْكُوزٌ فِي بَنِي آدَمَ حَتَّى الصِّبْيَانِ، لَوْ ضُرِبَ الصَّبِيُّ ضَرْبَةً فَقَالَ: مَنْ ضَرَبَنِي؟ فَقِيلَ: مَا ضَرَبَكَ أَحَدٌ، لَمْ يُصَدِّقْ عَقْلُهُ أَنَّ الضَّرْبَةَ حَدَثَتْ مِنْ غَيْرِ فَاعِلٍ.

وَلِهَذَا لَوْ جَوَّزَ مُجَوِّزٌ أَنْ يَحْدُثَ كِتَابَةٌ أَوْ بِنَاءٌ أَوْ غِرَاسٌ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ مُحْدِثٍ لِذَلِكَ، لَكَانَ عِنْدَ العُقَلَاءِ إِمَّا مَجْنُونًا وَإِمَّا مُسَفْسِطًا كَالْمُنْكِرِ لِلْعُلُومِ البَدِيهِيَّةِ وَالمَعَارِفِ الضَّرُورِيَّةِ، وَكَذَلِكَ مَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يُحْدِثْ نَفْسَهُ، فَإِنْ كَانَ مَعْدُومًا قَبْلَ حُدُوثِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا فَيَمْتَنِعُ أَنْ يُحْدِثَ غَيْرَهُ فَضْلًا عَنْ أَنْ يُحْدِثَ نَفْسَهُ.

فَقَوْلُكُمْ لَمْ يَكُنْ حُدُوثُهَا مِنْ ذَوَاتِهَا لِمَا فِيهَا مِنَ التَّضَادِّ وَالتَّقَلُّبِ، تَعْلِيلٌ بَاطِلٌ فَإِنَّ عِلْمَنَا بِأَنَّ حُدُوثَهَا لَمْ يَكُنْ مِنْ ذَوَاتِهَا لَيْسَ لِأَجْلِ مَا فِيهَا مِنَ التَّضَادِّ وَالتَّقَلُّبِ، بَلْ سَوَاءٌ كَانَتْ مُتَمَاثِلَةً أَوْ مُخْتَلِفَةً أَوْ مُتَضَادَّةً، نَحْنُ نَعْلَمُ بِصَرِيحِ العَقْلِ أَنَّ المُحْدَثَ لَا يُحْدِثُ نَفْسَهُ، وَهَذَا مِنْ أَظْهَرِ المَعَارِفِ وَأَبْيَنِهَا لِلْعَقْلِ، كَمَا يُعْلَمُ أَنَّ العَدَمَ لَا يَخْلُقُ مَوْجُودًا، وَأَنَّ المُحْدِثَ لِلْحَوَادِثِ المَوْجُودَةِ لَا يَكُونُ مَعْدُومًا.

الوَجْهُ الرَّابِعُ- أَنَّكُمْ ذَكَرْتُمْ حُجَّةً عَلَى أَنَّهَا لَمْ تُحْدِثْ نَفْسَهَا، وَهِيَ حُجَّةٌ ضَعِيفَةٌ وَلَمْ تَذْكُرُوا حُجَّةً عَلَى أَنَّهَا حَدَثَتْ، بِلَا مُحْدِثٍ، لَا أَنْفُسِهَا وَلَا غَيْرِهَا، فَإِنْ كَانَ امْتِنَاعُ كَوْنِهَا أَحْدَثَتْ نَفْسَهَا مُحْتَاجًا إِلَى دَلِيلٍ، فَكَذَلِكَ امْتِنَاعُ حُدُوثِهَا، بِلَا مُحْدِثٍ، وَإِنْ كَانَ مَعْلُومًا بِبَدِيهَةِ العَقْلِ، وَهُوَ مِنَ العُلُومِ الضَّرُورِيَّةِ، فَكَذَلِكَ الآخَرُ، فَذِكْرُ الدَّلِيلِ عَلَى أَحَدِهِمَا دُونَ الآخَرِ خَطَأٌ لَوْ كُنْتُمْ ذَكَرْتُمْ دَلِيلًا صَحِيحًا، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الدَّلِيلُ بَاطِلًا؟ وَمَنْ يَكُونُ مُبَلِّغُهُمْ مِنَ العِلْمِ بِالأَدِلَّةِ العَقْلِيَّةِ الَّتِي يُثْبِتُونَ بِهَا العِلْمَ بِالصَّانِعِ وَصِفَاتِهِ هَذَا المَبْلَغَ؟ ثُمَّ يُرِيدُونَ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يُثْبِتُوا مَعَانِيَ عَقْلِيَّةً وَيَزْعُمُونَ أَنَّهَا مُوَافِقَةٌ لِفَهْمِهِمُ البَاطِلِ مِنَ الكُتُبِ

الإِلَهِيَّةِ، فَهُمْ مِمَّنْ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٣٩-٤٠].

الوَجْهُ الثَّانِي عَشَرَ- قَوْلُكُمْ: فَقُلْنَا: إِنَّهُ شَيْءٌ لَا كَالأَشْيَاءِ المَخْلُوقَةِ، إِذْ هُوَ الخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ، لِنَنْفِيَ عَنْهُ العَدَمَ، فَيُقَالُ لَهُمْ: لَا رَيْبَ أَنَّ اللهَ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

وَقَوْلِهِ: ﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴾ [مريم: ٦٥] أَيْ: مَثَلًا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسَمَّى بِأَسْمَائِهِ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾ [سُورَةُ الإِخْلَاصِ].

وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ العَقْلُ، فَإِنَّ المِثْلَيْنِ اللَّذَيْنِ يَسُدُّ أَحَدُهُمَا مَسَدَّ الآخَرِ يَجِبُ لِأَحَدِهِمَا مَا يَجِبُ لِلْآخَرِ وَيَمْتَنِعُ عَلَيْهِ مَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ، وَيَجُوزُ عَلَيْهِ مَا يَجُوزُ عَلَيْهِ، فَلَوْ كَانَ لِلْخَالِقِ مِثْلٌ لَلَزِمَ أَنْ يَشْتَرِكَا فِيمَا يَجِبُ، وَيَجُوزُ وَيَمْتَنِعُ.

وَالخَالِقُ يَجِبُ لَهُ الوُجُودُ وَالقِدَمُ، وَيَمْتَنِعُ عَلَيْهِ العَدَمُ، فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ المَخْلُوقُ وَاجِبَ الوُجُودِ قَدِيمًا أَزَلِيًّا لَمْ يُعْدَمْ قَطُّ، وَكَوْنُهُ مُحْدَثًا مَخْلُوقًا يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ كَانَ مَعْدُومًا، فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ مَوْجُودًا مَعْدُومًا قَدِيمًا مُحْدَثًا، وَهُوَ جَمْعٌ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ يَمْتَنِعُ فِي بِدَايَةِ العُقُولِ، وَأَيْضًا فَالمَخْلُوقُ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ القِدَمُ، وَيَجِبُ لَهُ سَابِقَةُ العَدَمِ، فَلَوْ وَجَبَ لِلْخَالِقِ القَدِيمِ مَا يَجِبُ لَهُ، لَوَجَبَ كَوْنُ الوَاجِبِ لِلْقِدَمِ وَاجِبَ الحُدُوثِ بَعْدَ العَدَمِ وَهَذَا جَمْعٌ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ، فَالعَقْلُ الصَّرِيحُ يَجْزِمُ بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَالكَلَامُ عَلَى هَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ لَكِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَذْكُرُوا عَلَى ذَلِكَ حُجَّةً، (بَلْ قُلْتُمْ إِنَّهُ شَيْءٌ لَا كَالأَشْيَاءِ المَخْلُوقَةِ، إِذْ هُوَ الخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ فَلَمْ تَذْكُرُوا حُجَّةً) عَلَى أَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، إِذْ كَانَ عُمْدَتَكُمْ عَلَى

مَا شَهِدْتُمْ حُدُوثَهُ وَلَيْسَ ذَلِكَ كُلَّ شَيْءٍ، وَلَمْ تَذْكُرُوا حُجَّةً مَعَ كَوْنِهِ خَالِقَ كُلِّ شَيْءٍ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، بَلْ قُلْتُمْ لِأَنَّنَا مَعْشَرَ النَّصَارَى لَمَّا رَأَيْنَا حُدُوثَ الأَشْيَاءِ عَلِمْنَا أَنَّ شَيْئًا غَيْرَهَا أَحْدَثَهَا لِمَا فِيهَا مِنَ التَّضَادِّ وَالتَّقَلُّبِ فَقُلْنَا: إِنَّهُ شَيْءٌ لَا كَالأَشْيَاءِ المَخْلُوقَةِ إِذْ هُوَ الخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَذَلِكَ لِنَنْفِيَ العَدَمَ عَنْهُ، وَدَلِيلُكُمْ لَوْ دَلَّ عَلَى العِلْمِ بِالصَّانِعِ لَمْ يَدُلَّ إِلَّا عَلَى أَنَّهُ خَالِقٌ فَكَيْفَ إِذَا لَمْ يَدُلَّ؟

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الخَالِقَ سُبْحَانَهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَوْجُودًا لَا مَعْدُومًا، وَهَذَا مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ عِنْدَ جُمْهُورِ العُقَلَاءِ وَالنُّظَّارِ وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ أَثْبَتَ وُجُودَهُ بِالدَّلِيلِ النَّظَرِيِّ، لَكِنْ لَيْسَ فِي دَلِيلِكُمْ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ كَالأَشْيَاءِ المَخْلُوقَةِ، وَقَوْلُكُمْ: إِذْ هُوَ الخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ يَتَضَمَّنُ أَنَّهُ خَالِقٌ لِكُلِّ مَا سِوَاهُ، لَيْسَ فِيهِ بَيَانُ نَفْيٍ لِلْمُمَاثَلَةِ عَنْهُ، وَلَكِنْ بَيَّنْتُمْ بِهَذَا الكَلَامِ جَهْلَكُمْ بِالدَّلَائِلِ العَقْلِيَّةِ كَجَهْلِكُمْ بِالكُتُبِ المُنَزَّلَةِ، وَكَذَلِكَ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ النَّارِ بِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠].

❁❁❁

فَصْلٌ

دلائل حياة الله

وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: وَرَأَيْنَا الأَشْيَاءَ المَخْلُوقَةَ تَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ: شَيْءٌ حَيٌّ، وَشَيْءٌ غَيْرُ حَيٍّ، فَوَصَفْنَاهُ بِأَجَلِّ القِسْمَيْنِ فَقُلْنَا إِنَّهُ حَيٌّ لِنَنْفِيَ المَوْتَ عَنْهُ.

فَيُقَالُ: لَا رَيْبَ أَنَّ اللهَ حَيٌّ كَمَا نَطَقَتْ بِذَلِكَ كُتُبُهُ المُنَزَّلَةُ الَّتِي هِيَ آيَاتُهُ القَوْلِيَّةُ، وَدَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ آيَاتُهُ كَمَخْلُوقَاتِهِ، الَّتِي هِيَ آيَاتُهُ الفِعْلِيَّةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فُصِّلَتْ: ٥٣]، أَيِ القُرْآنُ حَقٌّ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ القُرْآنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فُصِّلَتْ: ٥٢].

فَاللهُ تَعَالَى يُرِي عِبَادَهُ مِنْ آيَاتِهِ المُشَاهَدَةِ المُعَايَنَةِ الفِعْلِيَّةِ، مَا يُبَيِّنُ صِدْقَ آيَاتِهِ المُنَزَّلَةِ المَسْمُوعَةِ القَوْلِيَّةِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفُرْقَان: ٥٨].

وَالدَّلَائِلُ عَلَى حَيَاتِهِ كَثِيرَةٌ:

مِنْهَا: أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ عَالِمٌ، وَالعِلْمُ لَا يَقُومُ إِلَّا بِحَيٍّ، وَثَبَتَ أَنَّهُ قَادِرٌ مُخْتَارٌ يَفْعَلُ بِمَشِيئَتِهِ، وَالقَادِرُ المُخْتَارُ لَا يَكُونُ إِلَّا حَيًّا.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ خَالِقُ الأَحْيَاءِ وَغَيْرِهِمْ، وَالخَالِقُ أَكْمَلُ مِنَ المَخْلُوقِ، فَكُلُّ كَمَالٍ ثَبَتَ لِلْمَخْلُوقِ فَهُوَ مِنَ الخَالِقِ، فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ المَخْلُوقُ أَكْمَلَ مِنْ خَالِقِهِ، وَكَمَالُهُ أَكْمَلَ مِنْهُ.

وَالْمُتَفَلْسِفَةُ القَائِلُونَ بِالْمُوجِبِ بِالذَّاتِ يُسَلِّمُونَ هَذَا، وَيَقُولُونَ: كَمَالُ المَعْلُولِ مُسْتَفَادٌ مِنْ عِلَّتِهِ فَإِذَا كَانَ خَالِقًا لِلْأَحْيَاءِ كَانَ حَيًّا بِطَرِيقِ الأَوْلَى وَالأَحْرَى.

وَمِنْهَا: أَنَّ الحَيَّ أَكْمَلُ مِنْ غَيْرِ الحَيِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فَاطِر: ٢٢].

فَلَوْ كَانَ الخَالِقُ غَيْرَ حَيٍّ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ المُمْكِنُ المُحْدَثُ المَخْلُوقُ أَكْمَلَ مِنَ الوَاجِبِ القَدِيمِ الخَالِقِ، فَيَكُونُ أَنْقَصُ المَوْجُودَيْنِ أَكْمَلَ مِنْ أَكْمَلِهَا، وَهَذَا الوَجْهُ يَتَنَاوَلُ مَا ذَكَرُوهُ مِنَ الدَّلِيلِ، وَإِنْ كَانُوا لَمْ يُبَيِّنُوهُ بَيَانًا تَامًّا، لَكِنَّ قَوْلَهُمْ قُلْنَا إِنَّهُ حَيٌّ لِنَنْفِيَ المَوْتَ عَنْهُ. كَلَامٌ مُسْتَدْرَكٌ فَإِنَّ اللهَ مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الكَمَالِ الثُّبُوتِيَّةِ كَالحَيَاةِ وَالعِلْمِ وَالقُدْرَةِ، فَيَلْزَمُ مِنْ ثُبُوتِهَا سَلْبُ صِفَاتِ النَّقْصِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يُمْدَحُ بِالصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ إِلَّا لِتَضَمُّنِهَا المَعَانِيَ الثُّبُوتِيَّةَ، فَإِنَّ العَدَمَ المَحْضَ وَالسَّلْبَ الصِّرْفَ لَا مَدْحَ فِيهِ وَلَا كَمَالَ، إِذْ كَانَ المَعْدُومُ يُوصَفُ بِالعَدَمِ المَحْضِ، وَالعَدَمُ نَفْيٌ مَحْضٌ لَا كَمَالَ فِيهِ، إِنَّمَا الكَمَالُ فِي الوُجُودِ.

وَلِهَذَا جَاءَ كِتَابُ اللهِ تَعَالَى عَلَى هَذَا الوَجْهِ فَيَصِفُ سُبْحَانَهُ نَفْسَهُ بِالصِّفَاتِ الثُّبُوتِيَّةِ صِفَاتِ الكَمَالِ وَبِصِفَاتِ السَّلْبِ المُتَضَمِّنَةِ لِلثُّبُوتِ كَقَوْلِهِ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥].

فَنَفْيُ أَخْذِ السِّنَةِ وَالنَّوْمِ يَتَضَمَّنُ كَمَالَ حَيَاتِهِ وَقَيُّومِيَّتِهِ، إِذِ النَّوْمُ أَخُو المَوْتِ وَلِهَذَا كَانَ أَهْلُ الجَنَّةِ لَا يَنَامُونَ مَعَ كَمَالِ الرَّاحَةِ، كَمَا لَا يَمُوتُونَ.

وَالقَيُّومُ: القَائِمُ المُقِيمُ لِمَا سِوَاهُ، فَلَوْ جُعِلَتْ لَهُ سِنَةٌ أَوْ نَوْمٌ لَنَقَصَتْ حَيَاتُهُ وَقَيُّومِيَّتُهُ، فَلَمْ يَكُنْ قَائِمًا وَلَا قَيُّومًا، كَمَا ضَرَبَ اللهُ المَثَلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، لَمَّا سَأَلُوا مُوسَى: هَلْ يَنَامُ رَبُّكَ؟ فَأَرَّقَهُ ثَلَاثًا، ثُمَّ أَعْطَاهُ قَوَارِيرَ فَأَخَذَهُ النَّوْمُ فَتَكَسَّرَتْ.

بَيَّنَ بِهَذَا المَثَلِ أَنَّ خَالِقَ العَالَمِ لَوْ نَامَ لَنَفِدَ العَالَمُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥].

فَإِنْكَارُهُ وَنَفْيُهُ أَنْ يَشْفَعَ أَحَدٌ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَتَضَمَّنُ كَمَالَ مُلْكِهِ لِمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ، فَإِنَّ مَنْ شَفَعَ عِنْدَهُ غَيْرُهُ بِغَيْرِ إِذْنِهِ وَقَبِلَ شَفَاعَتَهُ كَانَ مُشَارِكًا لَهُ إِذْ صَارَتْ شَفَاعَتُهُ سَبَبًا لِتَحْرِيكِ المَشْفُوعِ إِلَيْهِ، بِخِلَافِ مَنْ لَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَإِنَّهُ مُنْفَرِدٌ بِالْمُلْكِ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ بِوَجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البَقَرَة:٢٥٥].

فَنَفَى أَنْ يَعْلَمَ أَحَدٌ شَيْئًا مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ لَيْسَ إِلَّا أَنَّهُ مُنْفَرِدٌ بِالتَّعْلِيمِ، فَهُوَ العَالِمُ بِالمَعْلُومَاتِ، وَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ شَيْئًا إِلَّا بِتَعْلِيمِهِ، كَمَا قَالَتِ المَلَائِكَةُ: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البَقَرَة:٣٢].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة:٢٥٥].

أَيْ لَا يَكْرُثُهُ وَلَا يَثْقُلُ عَلَيْهِ، فَبَيَّنَ بِذَلِكَ كَمَالَ قُدْرَتِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَلْحَقُهُ أَدْنَى مَشَقَّةٍ، وَلَا أَيْسَرُ كُلْفَةٍ فِي حِفْظِ المَخْلُوقَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [قٓ:٣٨].

بَيَّنَ بِذَلِكَ كَمَالَ قُدْرَتِهِ وَأَنَّهُ لَا يَلْحَقُهُ اللُّغُوبُ فِي الأَعْمَالِ العَظِيمَةِ مِثْلِ خَلْقِهِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، كَمَا يَلْحَقُ المَخْلُوقَ اللُّغُوبُ إِذَا عَمِلَ عَمَلًا عَظِيمًا، وَاللُّغُوبُ: الِانْقِطَاعُ وَالإِعْيَاءُ، وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ.

وَالمَقْصُودُ هُنَا أَنَّهُ مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الكَمَالِ الَّتِي يَسْتَحِقُّهَا بِذَاتِهِ وَيَمْتَنِعُ اتِّصَافُهُ بِنَقَائِضِهَا، وَإِذَا وُصِفَ بِالسُّلُوبِ، فَالمَقْصُودُ هُوَ إِثْبَاتُ الكَمَالِ، وَهَؤُلَاءِ قَالُوا: قَدْ وَصَفْنَاهُ بِالحَيَاةِ لِنَنْفِيَ عَنْهُ المَوْتَ، كَمَا قَالُوا: هُوَ شَيْءٌ لِنَنْفِيَ العَدَمَ عَنْهُ، وَالحَيَاةُ صِفَةُ كَمَالٍ يَسْتَحِقُّهَا بِذَاتِهِ، وَالمَوْتُ مُنَاقِضٌ لَهَا، فَلَمْ يُوصَفْ بِالحَيَاةِ لِأَجْلِ نَفْيِ المَوْتِ، بَلْ وَصْفُهُ بِالحَيَاةِ يَسْتَلْزِمُ

نَفْـيَ المَـوْتِ، فَيَنْفِي عَنْهُ المَوْتَ لِأَنَّهُ حَيٌّ، لَا يُثْبِتُ لَهُ الحَيَاةَ لِنَفْيِ المَوْتِ، وَكَذَلِكَ لِتُثْبِتَ لَهُ أَنَّهُ شَيْءٌ مَوْجُودٌ، وَذَلِكَ يَسْـتَلْزِمُ نَفْيَ العَدَمِ عَنْهُ، لَا أَنَّ إِثْبَاتَ وُجُودِهِ لِأَجْلِ نَفْيِ العَدَمِ، بَلْ نَفْيُ العَدَمِ عَنْهُ لِأَجْلِ وُجُودِهِ، كَمَا أَنَّ نَفْيَ المَوْتِ عَنْهُ لِأَجْلِ حَيَاتِهِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ: قُلْنَا إِنَّـهُ شَيْءٌ لَا كَالأَشْـيَاءِ المَخْلُوقَـةِ وَذَلِكَ لِنَنْفِيَ العَدَمَ عَنْهُ، لَكِـنْ كَانَ مُرَادُهُمْ وَاللهُ أَعْلَمُ - وَإِنْ كَانَتْ عِبَارَتُهُمْ قَاصِرَةً - إِثْبَاتَ الوُجُودِ، وَنَفْيَ العَدَمِ، وَإِثْبَاتَ الحَيَاةِ وَنَفْيَ المَوْتِ.

❁❁❁

obeikandl.com

فَصْلٌ

طرق معرفة صفات الله

ثُمَّ قَالُوا: وَرَأَيْنَا الحَيَّ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ: حَيًّا نَاطِقًا، وَحَيًّا غَيْرَ نَاطِقٍ فَوَصَفْنَاهُ بِأَفْضَلِ الوَصْفَيْنِ، فَقُلْنَا: إِنَّهُ نَاطِقٌ لِنَنْفِيَ الجَهْلَ عَنْهُ.

فَيُقَالُ لَهُمْ: لَا رَيْبَ أَنَّ الرَّبَّ سُبْحَانَهُ مَوْصُوفٌ بِأَنَّهُ حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ مُتَكَلِّمٌ مُخْتَارٌ، لَكِنَّ قَوْلَهُمْ: فَقُلْنَا إِنَّهُ نَاطِقٌ لِنَنْفِيَ الجَهْلَ عَنْهُ يَقْتَضِي أَنَّكُمْ أَرَدْتُمُ النُّطْقَ المُنَاقِضَ لِلْجَهْلِ، وَهَذَا هُوَ العِلْمُ، فَإِنَّ العِلْمَ يُنَاقِضُ الجَهْلَ لَمْ تُرِيدُوا بِذَلِكَ النُّطْقَ الَّذِي هُوَ العِبَارَةُ وَالبَيَانُ، وَلَمْ تُرِيدُوا بِذَلِكَ مَا جَعَلَهُ بَعْضُ النُّظَّارِ كَلَامًا، وَهِيَ مَعَانِي قَائِمَةٌ بِالنَّفْسِ لَيْسَتْ مِنْ جِنْسِ العُلُومِ، وَلَا مِنْ جِنْسِ الإِرَادَاتِ، وَحِينَئِذٍ فَيُقَالُ لَكُمْ: لَيْسَ فِي الأَحْيَاءِ إِلَّا مَا هُوَ شَاعِرٌ، فَكُلُّ حَيٍّ فَلَهُ شُعُورٌ بِحَسَبِهِ.

وَكُلَّمَا قَوِيَتِ الحَيَاةُ قَوِيَ شُعُورُهَا، وَشُعُورُ الحَيَوَانِ قَدْ يُعَبَّرُ عَنْهُ بِلَفْظِ العِلْمِ، كَمَا يَقُولُ النَّاسُ: عِلْمُ الفَهْدِ وَالبَازِي وَالكَلْبِ، وَيُقَالُ: كَلْبٌ مُعَلَّمٌ وَغَيْرُ مُعَلَّمٍ وَبَازِي مُعَلَّمٌ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المَائِدَة: ٤].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ المُعَلَّمَ، وَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ فَقَتَلَ فَكُلْ**»(١) وَلَا رَيْبَ أَنَّ العِلْمَ صِفَةُ كَمَالٍ، فَالعَالِمُ أَكْمَلُ مِنَ الجَاهِلِ، وَالدَّلَائِلُ الدَّالَّةُ عَلَى عِلْمِ اللهِ كَثِيرَةٌ، مِثْلُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ بِإِرَادَتِهِ، وَالإِرَادَةُ تَسْتَلْزِمُ تَصَوُّرَ المُرَادِ فَلَابُدَّ أَنْ يَعْلَمَ المَخْلُوقَاتِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهَا.

---

(١) أخرجه البخاري [٥٤٧٧]، [٧٣٩٧]، ومسلم [١٩٢٩]، وأبو داود [٢٨٤٧]، والنسائي (٧/ ١٨٠-١٨١)، والترمذي [١٤٦٥]، وابن ماجه [٣٢٠٨] من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

وَكُلُّ مَا وُجِدَ فِي الخَارِجِ فَهُوَ مَوْجُودٌ وُجُودًا مُعَيَّنًا يَمْتَازُ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ، فَإِذَا خَلَقَهَا كَذَلِكَ فَلَابُدَّ أَنْ يَعْلَمَهَا عِلْمًا مُفَصَّلًا يَمْتَازُ بِهِ كُلُّ مَعْلُومٍ عَمَّا سِوَاهُ، وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ عَلِمَهَا عَلَى وَجْهٍ كُلِّيٍّ فَقَطْ لَمْ يَكُنْ عَلِمَ مِنْهَا شَيْئًا، لِأَنَّ الكُلِّيَّ إِنَّمَا يَكُونُ كُلِّيًّا فِي الأَذْهَانِ، وَأَمَّا مَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي الخَارِجِ فَهُوَ مُعَيَّنٌ مُخْتَصٌّ بِعَيْنِهِ لَيْسَ بِكُلِّيٍّ.

وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الأَفْلَاكِ مُعَيَّنٌ، فَلَوْ لَمْ يَعْلَمْ إِلَّا الكُلِّيَّاتِ لَمْ يَكُنْ عَالِمًا بِشَيْءٍ مِنَ المَوْجُودَاتِ، وَقَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا المَوْضِعِ تَمَامُ الكَلَامِ عَلَى هَذَا وَبُيِّنَ فَسَادُ شُبَهِ نُفَاةِ ذَلِكَ بِمَا ادَّعَوْهُ مِنْ لُزُومِ التَّغْيِيرِ أَوِ التَّكَثُّرِ، وَبُيِّنَ أَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ ثُبُوتِ عِلْمِ اللهِ بِالأَشْيَاءِ كُلِّهَا عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ مَحْذُورٌ يَنْفِيهِ دَلِيلٌ صَحِيحٌ.

فَإِنَّ التَّكَثُّرَ فِيمَا يَقُومُ بِهِ مِنَ المَعَانِي هُوَ مَدْلُولُ الأَدِلَّةِ العَقْلِيَّةِ وَالسَّمْعِيَّةِ فَإِنَّهُ عَالِمٌ قَادِرٌ حَيٌّ، وَلَيْسَ العِلْمُ هُوَ القُدْرَةَ، وَلَا القُدْرَةُ هِيَ الحَيَاةَ وَلَا الصِّفَةُ هِيَ المَوْصُوفَ، وَمَنْ جَعَلَ كُلَّ صِفَةٍ هِيَ الأُخْرَى، وَجَعَلَ الصِّفَاتِ هِيَ المَوْصُوفَ، فَهُوَ قَوْلٌ فِي غَايَةِ السَّفْسَطَةِ.

وَأَيْضًا فَإِنَّهُ خَالِقُ العَالَمِينَ مِنَ المَلَائِكَةِ وَالجِنِّ وَالإِنْسِ، وَجَاعِلُهُمْ عُلَمَاءَ، فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَجْعَلَ غَيْرَهُ عَالِمًا مَنْ لَيْسَ هُوَ فِي نَفْسِهِ بِعَالِمٍ، فَإِنَّ العِلْمَ صِفَةُ كَمَالٍ، وَمَنْ يَعْلَمُ أَكْمَلُ مِمَّنْ لَا يَعْلَمُ، وَكُلُّ كَمَالٍ لِلْمَخْلُوقِ فَهُوَ مِنَ الخَالِقِ، فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ المَخْلُوقُ أَكْمَلَ مِنَ الخَالِقِ، وَأَيْضًا فَإِنَّ فِي المُمْكِنَاتِ المُحْدَثَةِ المَخْلُوقَةِ مَا هُوَ عَالِمٌ، وَالوَاجِبُ القَدِيمُ الخَالِقُ أَكْمَلُ مِنَ المُمْكِنِ المُحْدَثِ، فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَتَّصِفَ بِالكَمَالِ المَوْجُودُ النَّاقِصُ الخَسِيسُ دُونَ المَوْجُودِ الكَامِلِ الشَّرِيفِ، وَهَذَا يَتَنَاوَلُ مَعْنَى حُجَّتِهِمْ.

وَأَيْضًا فَإِنَّهُ حَيٌّ، وَالحَيَاةُ مُسْتَلْزِمَةٌ لِجِنْسِ العِلْمِ، وَإِذَا كَانَتْ حَيَاتُهُ أَكْمَلَ مِنْ كُلِّ حَيَاةٍ فَعِلْمُهُ أَكْمَلُ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ، لَكِنْ يُقَالُ لَكُمْ: كَمَا أَنَّهُ حَيٌّ عَالِمٌ فَهُوَ أَيْضًا قَادِرٌ، فَمَا

ذَكَرْتُمْ بِأَنَّ المَوْجُودَاتِ أَوِ الأَحْيَاءَ تَنْقَسِمُ إِلَى قَادِرٍ وَغَيْرِ قَادِرٍ، فَيَجِبُ أَنْ يُوصَفَ بِأَجَلِّ القِسْمَيْنِ، وَهُوَ القُدْرَةُ.

لَاسِيَّمَا وَدَلَائِلُ كَوْنِهِ قَادِرًا أَظْهَرُ مِنْ دَلَائِلِ كَوْنِهِ عَالِمًا، فَإِنَّ نَفْسَ كَوْنِهِ خَالِقًا فَاعِلًا يَسْتَلْزِمُ كَوْنَهُ قَادِرًا، فَإِنَّ الفِعْلَ بِدُونِ القُدْرَةِ مُمْتَنِعٌ حَتَّى إِذَا قِيلَ: إِنَّ الجَمَادَ يَفْعَلُ فَإِنَّمَا يَفْعَلُ بِقُوَّةٍ فِيهِ كَالقُوَى الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي فِي الأَجْسَامِ الطَّبِيعِيَّةِ، فَيَمْتَنِعُ فِي خَالِقِ العَالَمِ أَنْ لَا يَكُونَ لَهُ قُوَّةٌ، وَلَا قُدْرَةٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وَفِي «صَحِيحِ البُخَارِيِّ» حَدِيثُ الِاسْتِخَارَةِ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ**»(١).

وَكَثِيرٌ مِنْ نُظَّارِ المُسْلِمِينَ المُصَنِّفِينَ فِي أُصُولِ الدِّينِ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الدَّلِيلَ عَلَى كَوْنِهِ قَادِرًا قَبْلَ كَوْنِهِ عَالِمًا وَحَيًّا، وَيَقُولُونَ: العِلْمُ بِذَلِكَ أَسْبَقُ فِي السُّلُوكِ الِاسْتِدْلَالِيِّ النَّظَرِيِّ لِدَلَالَةِ الأَحْدَاثِ وَالفِعْلِ عَلَى قُدْرَةِ المُحْدِثِ الفَاعِلِ فَيَجِبُ أَنْ يُثْبِتُوا لَهُ صِفَةَ القُدْرَةِ مَعَ العِلْمِ.

وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ: إِنَّ الحَيَّ لَمَّا كَانَ يَنْقَسِمُ إِلَى سَمِيعٍ، وَغَيْرِ سَمِيعٍ، وَبَصِيرٍ، وَغَيْرِ بَصِيرٍ، وَصَفْنَاهُ بِأَشْرَفِ القِسْمَيْنِ، وَهُوَ السَّمِيعُ وَالبَصِيرُ.

---

(١) أخرجه البخاري [١١٦٦]، [٧٣٩٠]، [٦٣٨٢]، وفي «الأدب المفرد» [٢٩٣]، وأبو داود [١٥٣٨]، والترمذي [٤٨٠]، والنسائي (٦/ ٨٠)، وابن ماجه [١٣٨٣]، والإمام أحمد في «المسند» وكذا ابنه عبد الله في «زوائده» (٣/ ٣٤٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. وقد خرجته مطولًا في «عمل اليوم» لابن السني [٥٩٦].

وَكَذَلِكَ فِي النُّطْقِ إِذَا أُرِيدَ بِهِ البَيَانُ وَالعِبَارَةُ، وَلَمْ يُرَدْ بِهِ مُجَرَّدُ العِلْمِ، أَوْ مَعْنًى مِنْ جِنْسِ العِلْمِ فَإِنَّ الحَيَّ يَنْقَسِمُ إِلَى مُتَكَلِّمٍ، وَمُبَيِّنٍ مُعَبِّرٍ عَمَّا فِي نَفْسِهِ، وَإِلَى مَا لَيْسَ كَذَلِكَ، فَيَجِبُ أَنْ تَصِفُوهُ بِأَشْرَفِ القِسْمَيْنِ، وَهُوَ الكَلَامُ المُبَيِّنُ المُعَبِّرُ عَنْهُ عَمَّا فِي النَّفْسِ مِنَ المَعَانِي.

وَمِمَّا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى ثُبُوتِ جَمِيعِ صِفَاتِ الكَمَالِ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يُوصَفْ بِكَوْنِهِ حَيًّا عَالِمًا قَادِرًا سَمِيعًا بَصِيرًا مُتَكَلِّمًا لَوُصِفَ بِضِدِّ ذَلِكَ، كَالمَوْتِ وَالجَهْلِ وَالعَجْزِ وَالصَّمَمِ وَالبُكْمِ وَالخَرَسِ، وَمَعْلُومٌ وُجُوبُ تَقَدُّسِهِ عَنْ هَذِهِ النَّقَائِصِ، بَلْ هَذَا مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ العَقْلِيَّةِ، فَإِنَّهُ أَكْمَلُ المَوْجُودَاتِ، وَأَجَلُّهَا وَأَعْظَمُهَا، وَرَبُّ كُلِّ مَا سِوَاهُ وَخَالِقُهُ وَمَالِكُهُ، وَجَاعِلُ كُلِّ مَا سِوَاهُ حَيًّا عَالِمًا قَادِرًا سَمِيعًا بَصِيرًا مُتَكَلِّمًا، فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ هُوَ شَيْئًا عَاجِزًا جَاهِلًا أَصَمَّ أَبْكَمَ أَخْرَسَ، بَلْ مِنَ المَعْلُومِ بِضَرُورَةِ العَقْلِ أَنَّ المُتَّصِفَ بِهَذِهِ النَّقَائِصِ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ فَاعِلًا، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ خَالِقًا لِكُلِّ شَيْءٍ.

وَلِبَعْضِ المَلَاحِدَةِ مِنَ المُتَفَلْسِفَةِ وَمَنِ اتَّبَعَهُمْ هُنَا سُؤَالٌ مَشْهُورٌ وَهُوَ: أَنَّهُ إِنَّمَا يَلْزَمُ إِذَا لَمْ يَتَّصِفْ بِصِفَاتِ الكَمَالِ أَنْ يُوصَفَ بِأَضْدَادِهَا إِذَا كَانَ قَابِلًا لَهَا، فَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ قَابِلًا لَهَا لَمْ يَلْزَمْ.

قَالُوا: هَذِهِ الصِّفَاتُ مُتَقَابِلَةٌ تُقَابِلُ العَدَمَ وَالمَلَكَةَ، وَهُوَ عَدَمُ الشَّيْءِ عَمَّا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَكُونَ قَابِلًا لَهُ كَعَدَمِ الحَيَاةِ وَالسَّمْعِ وَالبَصَرِ.

وَالكَلَامُ عَنِ الحَيَوَانِ الَّذِي هُوَ القَابِلُ لَهُ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ قَابِلًا لَهُ كَالجَمَادِ، فَلَا يُسَمَّى مَعَ عَدَمِ الحَيَاةِ وَالسَّمْعِ وَالبَصَرِ وَالكَلَامِ مَيِّتًا وَلَا أَصَمَّ وَلَا أَعْمَى وَلَا أَخْرَسَ.

وَجَوَابُ ذَلِكَ مِنْ أَوْجُهٍ:

أَحَدُهَا- أَنَّهُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ قَابِلًا لِلِاتِّصَافِ بِصِفَاتِ الكَمَالِ، وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ.

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَابِلًا لَزِمَ أَنْ يَكُونَ أَنْقَصَ مِمَّنْ قَبلَهَا، وَلَمْ يَتَّصِفْ بِهَا، فَالجَمَادُ أَنْقَصُ مِنَ الحَيَوَانِ الَّذِي لَمْ يَتَّصِفْ بَعْدُ بِصِفَاتِ كَمَالِهِ، وَإِنْ كَانَ قَابِلًا لَهَا لَزِمَ إِذَا عَدِمَهَا أَنْ يَتَّصِفَ بِأَضْدَادِهَا.

وَهَؤُلَاءِ قَدْ يَقُولُونَ: فِي إِثْبَاتِهَا تَشْبِيهٌ لَهُ بِالحَيَوَانِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: وَفِي نَفْيِهَا تَشْبِيهٌ لَهُ بِالجَمَادِ الَّذِي هُوَ أَنْقَصُ مِنَ الحَيَوَانِ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي نَفْيِهَا تَشْبِيهٌ لَهُ بِالجَمَادِ، فَكَذَلِكَ لَا يَكُونُ فِي إِثْبَاتِهَا تَشْبِيهٌ لَهُ بِالحَيَوَانِ، وَإِنْ كَانَ فِي ذَلِكَ تَشْبِيهٌ بِالحَيَوَانِ فَهُوَ مَحْذُورٌ، فَالمَحْذُورُ فِي تَشْبِيهِهِ بِالجَمَادِ أَعْظَمُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِثْلُ هَذَا التَّشْبِيهِ مَحْذُورًا فِي ذَلِكَ، فَأَنْ لَا يَكُونَ مَحْذُورًا فِي هَذَا بِطَرِيقِ الأَوْلَى.

الوَجْهُ الثَّانِي- أَنَّ جَعْلَهُمْ سَلْبَ المَوْتِ وَالصَّمَمِ وَالبُكْمِ عَنِ الجَمَادِ لِزَعْمِهِمْ أَنَّهُ غَيْرُ قَابِلٍ لَهَا اصْطِلَاحٌ مَحْضٌ، فَإِنَّهُ مَوْجُودٌ فِي كَلَامِ اللهِ تَسْمِيَةُ الجَمَادِ مَيِّتًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الأَصْنَامِ: ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ [النحل:٢١].

الوَجْهُ الثَّالِثُ- أَنَّهُ يَكْفِي عَدَمُ هَذِهِ الصِّفَاتِ، فَإِنَّ مُجَرَّدَ عَدَمِ الحَيَاةِ وَالعِلْمِ وَالقُدْرَةِ صِفَةُ نَقْصٍ سَوَاءٌ قُدِّرَ المَوْصُوفُ قَابِلًا لَهَا أَوْ غَيْرَ قَابِلٍ، بَلْ إِذَا قُدِّرَ أَنَّهُ غَيْرُ قَابِلٍ لَهَا كَانَ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي النَّقْصِ.

فَعُلِمَ أَنَّ نَفْيَ هَذِهِ الصِّفَاتِ عَنْهُ، وَنَفْيَ قَبُولِهَا يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ أَنْقَصَ مِنَ الحَيَوَانِ الأَعْمَى الأَصَمِّ الَّذِي يَقْبَلُهَا، وَإِنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِهَا.

الوَجْهُ الرَّابِعُ- أَنَّ الكَمَالَ فِي الوُجُودِ، وَالنَّقْصَ فِي العَدَمِ، فَنَفْسُ ثُبُوتِ هَذِهِ الصِّفَاتِ كَمَالٌ، وَنَفْسُ نَفْيِهَا نَقْصٌ، وَإِنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِهَا لَزِمَ نَقْصُهُ، وَأَنْ يَكُونَ المَفْعُولُ أَكْمَلَ مِنَ الفَاعِلِ، وَأَنْ يَكُونَ المُحْدَثُ المُمْكِنُ المَخْلُوقُ أَكْمَلَ مِنَ القَدِيمِ الأَزَلِيِّ الوَاجِبِ الوُجُودِ الخَالِقِ، وَهَذَا مُمْتَنِعٌ فِي بِدَايَةِ العُقُولِ، وَهَذِهِ الأُمُورُ مَبْسُوطَةٌ فِي غَيْرِ هَذَا المَوْضِعِ

وَلَكِنْ نَبَّهْنَا عَلَيْهَا هُنَا لِبَيَانِ بَعْضِ الطُّرُقِ الَّتِي بِهَا تُعْرَفُ صِفَاتُ الرَّبِّ، وَبَيَانِ أَنَّ هَؤُلَاءِ القَوْمَ مِنْ أَجْهَلِ أَهْلِ المِلَلِ بِالرَّبِّ.

وَالطُّرُقُ الَّتِي يُعْرَفُ بِهَا كَمَالُهُ فِيهَا العَقْلِيَّةُ وَالسَّمْعِيَّةُ، وَأَنَّ القَوْمَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَلْفَاظِ الأَنْبِيَاءِ مَا لَمْ يَفْهَمُوا كَثِيرًا مِنْهُ وَمَا حَرَّفُوا كَثِيرًا مِنْهُ، وَعِنْدَهُمْ مِنَ المَعْقُولِ فِي ذَلِكَ مَا يَفْضُلُهُمُ اليَهُودُ فِيهِ، لَكِنَّ اليَهُودَ، وَإِنْ كَانُوا أَعْلَمَ مِنْهُمْ، فَهُمْ أَعْظَمُ عِنَادًا وَكِبْرًا وَجَحْدًا لِلْحَقِّ، وَالنَّصَارَى أَجْهَلُ وَأَضَلُّ مِنَ اليَهُودِ لَكِنْ هُمْ أَعْبَدُ وَأَزْهَدُ وَأَحْسَنُ أَخْلَاقًا، وَلِهَذَا كَانُوا أَقْرَبَ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنَ اليَهُودِ وَالمُشْرِكِينَ.

❁❁❁

obeikandl.com

فَصْلٌ

بيان أسماء الله تعالى

قَالُوا: وَالثَّلَاثَةُ أَسْمَاءٍ فَهِيَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَرَبٌّ وَاحِدٌ، وَخَالِقٌ وَاحِدٌ، مُسَمَّى وَاحِدٌ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ شَيْئًا حَيًّا نَاطِقًا، أَيِ الذَّاتُ، وَالنُّطْقُ، وَالحَيَاةُ.

فَالذَّاتُ عِنْدَنَا: الأَبُ الَّذِي هُوَ ابْتِدَاءُ الِاثْنَيْنِ.

وَالنُّطْقُ: الِابْنُ الَّذِي هُوَ مَوْلُودٌ مِنْهُ كَوِلَادَةِ النُّطْقِ مِنَ العَقْلِ.

وَالحَيَاةُ: هِيَ الرُّوحُ القُدُسُ.

وَالجَوَابُ عَنْ هَذَا مِنْ وُجُوهٍ:

الأَوَّلُ- أَنَّ أَسْمَاءَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُتَعَدِّدَةٌ كَثِيرَةٌ، فَإِنَّهُ:

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [طه: ١-٨].

obeikandl.com

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**»(١).

وَهَذَا مَعْنَاهُ فِي أَشْهَرِ قَوْلَيِ العُلَمَاءِ وَأَصَحِّهِمَا: أَنَّ مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ، وَإِلَّا فَأَسْمَاؤُهُ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى: أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا فِي الحَدِيثِ الآخَرِ الَّذِي رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَأَبُو حَاتِمٍ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَا أَصَابَ عَبْدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حُزْنٌ وَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِي قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي وَغَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَغَمَّهُ، وَأَبْدَلَ مَكَانَهُ فَرَحًا**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! أَفَلَا نَتَعَلَّمُهُنَّ؟ قَالَ: «**بَلَى يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ**»(٢).

---

(١) أخرجه الحميدي [١١٣٠] والبخاري [٦٤١٠] ومسلم [٢٦٧٧] والترمذي [٣٥٠٨] والبيهقي في «الأسماء» ص[٤] من طريق ابن عيينة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة.
وأخرجه البخاري [٢٧٣٦] [٧٣٩٢] من طريق شعيب بن أبي حمزة حدثنا أبو الزناد، به.
وأخرجه أحمد (٢/ ٢٦٧) ومسلم [٢٦٧٧] وعبد الرزاق [١٩٦٥٦] عن معمر عن أيوب عن ابن سيرين عن أبي هريرة.
وأخرجه أحمد (٢/ ٢٦٧ و٣١٤) ومسلم [٢٦٧٧] والبيهقي في «الأسماء» ص[٤] والبغوي [١٢٥٦] وعبد الرزاق [١٩٦٥٦] من طريق معمر عن همام عن أبي هريرة.
وله طرق كثيرة.

(٢) صحيح: أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (١/ ٣٩١-٤٥٢)، وأبو يعلى [٥٢٧٦]، والهيثم بن كليب في «مسنده» [٢٨٢]، والبزار (١٩٤٤- بحر)، وابن أبي الدنيا في «الفرج» [٤٩]، وابن حبان [٩٧٢]، والطبراني في «الدعاء» [١٠٣٥]، وفي «الكبير» (١٠/ ٢٠٩/ ١٠٣٥٢)، والأصبهاني في «الترغيب» [١٣٠٤]، والدينوري في «مجالسه» [١٨٠٣]، والحاكم والمقدسي في «الدعاء» [١٣٦]، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٤٠- بتحقيقي) وقد تكلمت عليه ثمة بشيء من التفصيل، فليرجع إليه من شاء غير مأمور.

وَإِذَا كَانَتْ أَسْمَاءُ اللهِ كَثِيرَةً، كَالعَزِيزِ وَالقَدِيرِ وَغَيْرِهَا، فَالِاقْتِصَارُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَسْمَاءٍ دُونَ غَيْرِهَا بَاطِلٌ، وَأَيُّ شَيْءٍ زَعَمَ الزَّاعِمُ فِي اخْتِصَاصِ هَذِهِ الأَسْمَاءِ بِهِ دُونَ غَيْرِهَا فَهُوَ بَاطِلٌ، كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ.

الوَجْهُ الثَّانِي- قَوْلُهُمُ الأَبُ الَّذِي هُوَ ابْتِدَاءُ الِاثْنَيْنِ، وَالِابْنُ: النُّطْقُ الَّذِي هُوَ مَوْلُودٌ مِنْهُ، كَوِلَادَةِ النُّطْقِ مِنَ العَقْلِ، كَلَامٌ بَاطِلٌ، فَإِنَّ صِفَاتِ الكَمَالِ لَازِمَةٌ لِذَاتِ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ أَوَّلًا وَآخِرًا، وَلَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ حَيًّا عَالِمًا قَادِرًا، لَمْ يَصِرْ حَيًّا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ حَيًّا، وَلَا عَالِمًا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ عَالِمًا.

فَإِذَا قَالُوا: إِنَّ الأَبَ الَّذِي هُوَ الذَّاتُ، هُوَ ابْتِدَاءُ الحَيَاةِ وَالنُّطْقِ اقْتَضَى ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الأَبُ قَبْلَ الحَيَاةِ وَالنُّطْقِ، وَأَنْ يَكُونَ فَاعِلًا لِلْحَيَاةِ وَالنُّطْقِ، فَإِنَّ مَا كَانَ ابْتِدَاءً لِغَيْرِهِ يَكُونُ مُتَقَدِّمًا عَلَيْهِ أَوْ فَاعِلًا لَهُ.

وَهَذَا فِي حَقِّ اللهِ بَاطِلٌ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ: إِنَّ النُّطْقَ مَوْلُودٌ مِنْهُ كَوِلَادَةِ النُّطْقِ مِنَ العَقْلِ، فَإِنَّ المَوْلُودَ مِنْ غَيْرِهِ مُتَوَلِّدٍ مِنْهُ، فَيَحْدُثُ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، كَمَا يَحْدُثُ النُّطْقُ شَيْئًا فَشَيْئًا، سَوَاءٌ أُرِيدَ بِالنُّطْقِ العِلْمُ أَوِ البَيَانُ فَكِلَاهُمَا لَمْ يَكُنْ لَازِمًا لِلنَّفْسِ النَّاطِقَةِ، بَلْ حَدَثَ فِيهَا وَاتَّصَفَتْ بِهِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، وَإِنْ كَانَتْ قَابِلَةً لَهُ نَاطِقَةً بِالقُوَّةِ، فَإِذَا مَثَّلُوا تَوَلُّدَ النُّطْقِ مِنَ الرَّبِّ كَتَوَلُّدِهِ عَنِ العَقْلِ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ الرَّبُّ كَانَ نَاطِقًا بِالقُوَّةِ، ثُمَّ صَارَ نَاطِقًا بِالفِعْلِ فَيَلْزَمُ أَنَّهُ صَارَ عَالِمًا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ عَالِمًا، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الكُفْرِ وَأَشَدِّهِ اسْتِحَالَةً، فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ غَيْرُهُ يَجْعَلُهُ مُتَّصِفًا بِصِفَاتِ الكَمَالِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مُتَّصِفًا بِهَا، إِذْ كُلُّ مَا سِوَاهُ فَهُوَ مَخْلُوقٌ لَهُ وَكَمَالُهُ مِنْهُ، فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ هُوَ جَاعِلُ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَامِلًا.

وَذَلِكَ دَوْرٌ مُمْتَنِعٌ فِي صَرِيحِ العَقْلِ، إِذْ كَانَ الشَّيْءُ لَا يَجْعَلُ غَيْرَهُ مُتَّصِفًا بِصِفَاتِ الكَمَالِ، حَتَّى يَكُونَ هُوَ مُتَّصِفًا بِهَا، فَإِذَا لَمْ يَتَّصِفْ بِهَا حَتَّى جَعَلَهُ غَيْرُهُ مُتَّصِفًا بِهَا لَزِمَ

الدَّوْرُ الْمُمْتَنِعُ، مِثْلُ كَوْنِ كُلٍّ مِنَ الشَّيْئَيْنِ فَاعِلًا لِلْآخَرِ وَعِلَّةً لَهُ أَوْ لِبَعْضِ صِفَاتِهِ الْمَشْرُوطَةِ فِي الفِعْلِ فَتَبَيَّنَ بُطْلَانُ كَوْنِ نُطْقِهِ مُتَوَلِّدًا مِنْهُ، كَتَوَلُّدِ النُّطْقِ مِنَ العَقْلِ، كَمَا بَطَلَ أَنْ يَكُونَ لِصِفَاتِهِ اللَّازِمَةِ لَهُ مَا هُوَ مَبْدَأٌ لَهَا مُتَقَدِّمٌ عَلَيْهَا أَوْ فَاعِلٌ لَهَا.

الوَجْهُ الثَّالِثُ- أَنَّ قَوْلَهُمْ فِي الِابْنِ أَنَّهُ مَوْلُودٌ مِنَ اللهِ إِنْ أَرَادُوا بِهِ أَنَّهُ صِفَةٌ لَازِمَةٌ لَهُ، فَكَذَلِكَ الحَيَاةُ صِفَةٌ لَازِمَةٌ للهِ، فَيَكُونُ رُوحُ القُدُسِ أَيْضًا ابْنًا ثَانِيًا، وَإِنْ أَرَادُوا بِهِ أَنَّهُ حَصَلَ مِنْهُ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، صَارَ عَالِمًا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ عَالِمًا، وَهَذَا مَعَ كَوْنِهِ بَاطِلًا وَكُفْرًا فَيَلْزَمُ مِثْلُهُ فِي الحَيَاةِ، وَهُوَ أَنَّهُ صَارَ حَيًّا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ حَيًّا.

الوَجْهُ الرَّابِعُ- أَنَّ تَسْمِيَةَ حَيَاةِ اللهِ رُوحَ القُدُسِ أَمْرٌ لَمْ يَنْطِقْ بِهِ شَيْءٌ مِنْ كُتُبِ اللهِ الْمُنَزَّلَةِ، فَإِطْلَاقُ رُوحِ القُدُسِ عَلَى حَيَاةِ اللهِ مِنْ تَبْدِيلِهِمْ وَتَحْرِيفِهِمْ.

الوَجْهُ الخَامِسُ- أَنَّهُمْ يَدَّعُونَ أَنَّ الْمُتَّحِدَ بِالمَسِيحِ هُوَ الكَلِمَةُ الَّذِي هُوَ العِلْمُ، وَهَذَا إِنْ أَرَادُوا بِهِ نَفْسَ الذَّاتِ العَالِمَةِ النَّاطِقَةِ، كَانَ المَسِيحُ هُوَ الأَبَ، وَكَانَ المَسِيحُ نَفْسُهُ هُوَ الأَبَ، وَهُوَ الِابْنَ، وَهُوَ رُوحَ القُدُسِ، وَهَذَا عِنْدَهُمْ وَعِنْدَ جَمِيعِ النَّاسِ بَاطِلٌ وَكُفْرٌ.

وَإِنْ قَالُوا الْمُتَّحِدُ بِهِ هُوَ العِلْمُ، فَالعِلْمُ صِفَةٌ لَا تُفَارِقُ العَالِمَ، وَلَا تُفَارِقُ الصِّفَةَ الأُخْرَى الَّتِي هِيَ حَيَاةٌ، فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَتَّحِدَ بِهِ العِلْمُ دُونَ الذَّاتِ، وَدُونَ الحَيَاةِ.

الوَجْهُ السَّادِسُ- أَنَّ العِلْمَ أَيْضًا صِفَةٌ، وَالصِّفَةُ لَا تُخْلَقُ وَلَا تُرْزَقُ، وَالمَسِيحُ نَفْسُهُ لَيْسَ هُوَ صِفَةً قَائِمَةً بِغَيْرِهَا بِاتِّفَاقِ العُقَلَاءِ، وَأَيْضًا فَهُوَ عِنْدَهُمْ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، فَامْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ الْمُتَّحِدُ بِهِ صِفَةً، فَإِنَّ الإِلَهَ المَعْبُودَ هُوَ الإِلَهُ الحَيُّ العَالِمُ القَادِرُ، وَلَيْسَ هُوَ نَفْسَ الحَيَاةِ، وَلَا نَفْسَ العِلْمِ وَالكَلَامِ.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: يَا حَيَاةَ اللهِ، أَوْ يَا عِلْمَ اللهِ، أَوْ يَا كَلَامَ اللهِ، اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي وَاهْدِنِي، كَانَ هَذَا بَاطِلًا فِي صَرِيحِ العَقْلِ، وَلِهَذَا لَمْ يُجَوِّزْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ المِلَلِ أَنْ يُقَالَ لِلتَّوْرَاةِ أَوِ

الإِنْجِيلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ اللهِ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي، وَإِنَّمَا يُقَالُ لِلْإِلَهِ الْمُتَكَلِّمِ بِهَذَا الكَلَامِ: اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي.

وَالمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَكُمْ هُوَ الإِلَهُ الخَالِقُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ اغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا، فَلَوْ كَانَ هُوَ نَفْسَ عِلْمِ اللهِ وَكَلَامِهِ لَمْ يَجُزْ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا مَعْبُودًا فَكَيْفَ إِذَا لَمْ يَكُنْ هُوَ نَفْسَ عِلْمِ اللهِ وَكَلَامِهِ، بَلْ هُوَ مَخْلُوقٌ بِكَلَامِهِ حَيْثُ قَالَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ؟

فَتَبَيَّنَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ كَلِمَاتِ اللهِ كَثِيرَةٌ لَا نِهَايَةَ لَهَا، وَفِي الكُتُبِ الإِلَهِيَّةِ كَالتَّوْرَاةِ أَنَّهُ خَلَقَ الأَشْيَاءَ بِكَلَامِهِ، وَكَانَ فِي أَوَّلِ التَّوْرَاةِ أَنَّهُ قَالَ: لِيَكُنْ كَذَا لِيَكُنْ كَذَا.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ المَسِيحَ لَيْسَ هُوَ كَلِمَاتٍ كَثِيرَةً، بَلْ غَايَتُهُ أَنْ يَكُونَ كَلِمَةً وَاحِدَةً، إِذْ هُوَ مَخْلُوقٌ بِكَلِمَةٍ مِنْ كَلِمَاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الوَجْهُ السَّابِعُ- أَنَّ أَمَانَتَكُمُ الَّتِي وَضَعَهَا أَكَابِرُكُمْ بِحَضْرَةِ قُسْطَنْطِينَ، وَهِيَ عَقِيدَةُ إِيمَانِكُمُ الَّتِي جَعَلْتُمُوهَا أَصْلَ دِينِكُمْ تُنَاقِضُ مَا تَدَّعُونَهُ مِنْ أَنَّ الإِلَهَ وَاحِدٌ، وَتُبَيِّنُ أَنَّكُمْ تَقُولُونَ لِمَنْ يُنَاظِرُكُمْ خِلَافَ مَا تَعْتَقِدُونَهُ.

وَهَذَانِ أَمْرَانِ مَعْرُوفَانِ فِي دِينِكُمْ تَنَاقُضُكُمْ وَإِظْهَارُكُمْ فِي المُنَاظَرَةِ بِخِلَافِ مَا تَقُولُونَهُ مِنْ أَصْلِ دِينِكُمْ، فَإِنَّ الأَمَانَةَ الَّتِي اتَّفَقَ عَلَيْهَا جَمَاهِيرُ النَّصَارَى يَقُولُونَ فِيهَا: أُومِنُ بِإِلَهٍ وَاحِدٍ، أَبٍ ضَابِطِ الكُلِّ، خَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، كُلِّ مَا يُرَى وَمَا لَا يُرَى، وَبِرَبٍّ وَاحِدٍ يَسُوعَ المَسِيحِ ابْنِ اللهِ الوَحِيدِ المَوْلُودِ مِنَ الأَبِ قَبْلَ كُلِّ الدُّهُورِ، نُورٌ مِنْ نُورٍ، إِلَهٌ حَقٌّ مِنْ إِلَهٍ حَقٍّ، مِنْ جَوْهَرِ أَبِيهِ، مَوْلُودٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، مُسَاوٍ لِلْأَبِ فِي الجَوْهَرِ الَّذِي بِهِ كَانَ كُلُّ شَيْءٍ، الَّذِي مِنْ أَجْلِنَا نَحْنُ البَشَرَ، وَمِنْ أَجْلِ خَلَاصِنَا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ، وَتَجَسَّدَ مِنْ رُوحِ القُدُسِ، وَمِنْ مَرْيَمَ العَذْرَاءِ وَتَأَنَّسَ وَصُلِبَ وَتَأَلَّمَ وَقُبِرَ، وَقَامَ فِي اليَوْمِ الثَّالِثِ عَلَى مَا فِي الكُتُبِ المُقَدَّسَةِ، وَصَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ، وَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ الأَبِ، وَأَيْضًا سَيَأْتِي بِمَجْدِهِ لِيَدِينَ الأَحْيَاءَ وَالأَمْوَاتَ الَّذِي لَا فَنَاءَ لِمُلْكِهِ، وَبِرُوحِ القُدُسِ الرَّبِّ المُحْيِي

الْمُنْبَثِقِ مِنَ الأَبِ الَّذِي هُوَ مَعَ الأَبِ وَالِابْنِ المَسْجُودِ لَهُ، وَمُمَجَّدٍ نَاطِقٍ فِي الأَنْبِيَاءِ، كَنِيسَةٌ وَاحِدَةٌ جَامِعَةٌ رَسُولِيَّةٌ، وَأَعْتَرِفُ بِمَعْمُودِيَّةٍ وَاحِدَةٍ لِمَغْفِرَةِ الخَطَايَا، وَابْنٍ جَاءَ لِقِيَامَةِ المَوْتَى، وَحَيَاةِ الدَّهْرِ العَتِيدِ كَوْنُهُ أَمِينًا.

فَفِي هَذِهِ الأَمَانَةِ الَّتِي جَعَلْتُمُوهَا أَصْلَ دِينِكُمْ ذُكِرَ الإِيمَانُ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ بِإِلَهٍ وَاحِدٍ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، خَالِقِ مَا يُرَى وَمَا لَا يُرَى، فَهَذَا هُوَ رَبُّ العَالَمِينَ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، وَهُوَ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَسَائِرِ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَهُوَ الَّذِي دَعَتْ جَمِيعُ الرُّسُلِ إِلَى عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَنَهَوْا أَنْ يُعْبَدَ غَيْرُهُ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

ثُمَّ قُلْتُمْ: (وَبِرَبٍّ وَاحِدٍ يَسُوعَ المَسِيحِ ابْنِ اللهِ الوَحِيدِ المَوْلُودِ مِنَ الأَبِ قَبْلَ كُلِّ الدُّهُورِ، نُورٌ مِنْ نُورٍ، إِلَهٌ حَقٌّ مِنْ إِلَهٍ حَقٍّ، مِنْ جَوْهَرِ أَبِيهِ، مَوْلُودٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، مُسَاوٍ الأَبَ فِي الجَوْهَرِ، فَصَرَّحْتُمْ بِالإِيمَانِ مَعَ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بِرَبٍّ وَاحِدٍ مَخْلُوقٍ، مُسَاوٍ الأَبَ ابْنِ اللهِ الوَحِيدِ، وَقُلْتُمْ: هُوَ إِلَهٌ حَقٌّ مِنْ إِلَهٍ حَقٍّ مِنْ جَوْهَرِ أَبِيهِ).

وَهَذَا تَصْرِيحٌ بِالإِيمَانِ بِإِلَهَيْنِ، أَحَدُهُمَا مِنَ الآخَرِ، وَعِلْمُ اللهِ القَائِمُ بِهِ، أَوْ كَلَامُهُ أَوْ حِكْمَتُهُ القَائِمَةُ بِهِ الَّذِي سَمَّيْتُمُوهُ ابْنًا، وَلَمْ يُسَمِّ أَحَدٌ مِنَ الرُّسُلِ صِفَةَ اللهِ ابْنًا لَيْسَ هُوَ إِلَهٌ حَقٌّ مِنْ إِلَهٍ حَقٍّ، بَلْ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَهَذَا صِفَةُ الإِلَهِ، وَصِفَةُ الإِلَهِ لَيْسَتْ بِإِلَهٍ، كَمَا أَنَّ قُدْرَتَهُ وَسَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَسَائِرَ صِفَاتِهِ لَيْسَ بِآلِهَةٍ، وَلِأَنَّ الإِلَهَ وَاحِدٌ، وَصِفَاتِهِ مُتَعَدِّدَةٌ، وَالإِلَهَ ذَاتٌ مُتَّصِفَةٌ بِالصِّفَاتِ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا، وَالصِّفَةَ قَائِمَةٌ بِالمَوْصُوفِ، وَلِأَنَّكُمْ سَمَّيْتُمُ الإِلَهَ جَوْهَرًا، وَقُلْتُمْ: هُوَ القَائِمُ بِنَفْسِهِ، وَالصِّفَةُ لَيْسَتْ جَوْهَرًا قَائِمًا بِنَفْسِهِ.

obeikandl.com

وَهُمْ فِي هَذِهِ الأَمَانَةِ قَدْ جَعَلُوا اللهَ وَالِدًا وَهُوَ الأَبُ، وَمَوْلُودًا وَهُوَ الِابْنُ، وَجَعَلُوهُ مُسَاوِيًا لَهُ فِي الجَوْهَرِ، وَقَدْ نَزَّهَ اللهُ نَفْسَهُ عَنِ الأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ، فَقَالُوا: مَوْلُودٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ مُسَاوٍ الأَبَ فِي الجَوْهَرِ، فَصَرَّحُوا بِأَنَّهُ مُسَاوٍ لَهُ فِي الجَوْهَرِ، وَالمُسَاوِي لَيْسَ هُوَ المُسَاوَى.

وَلَا يُسَاوِي الأَبُ فِي الجَوْهَرِ إِلَّا جَوْهَرٌ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الِابْنُ جَوْهَرًا ثَانِيًا، وَرُوحُ القُدُسِ جَوْهَرًا ثَالِثًا كَمَا سَيَأْتِي.

وَهَذَا تَصْرِيحٌ بِإِثْبَاتِ ثَلَاثَةِ جَوَاهِرَ، وَثَلَاثَةِ آلِهَةٍ، وَيَقُولُونَ مَعَ ذَلِكَ: إِنَّمَا نُثْبِتُ جَوْهَرًا وَاحِدًا وَإِلَهًا وَاحِدًا، وَهَذَا جَمْعٌ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ، فَهُوَ حَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ يَجْمَعُونَ بَيْنَ جَعْلِ الآلِهَةِ وَاحِدًا، وَإِثْبَاتِ ثَلَاثَةِ آلِهَةٍ، وَبَيْنَ إِثْبَاتِ جَوْهَرٍ وَاحِدٍ، وَبَيْنَ إِثْبَاتِهِ ثَلَاثَةَ جَوَاهِرَ، وَقَدْ نَزَّهَ اللهُ نَفْسَهُ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [سُورَةُ الإِخْلَاصِ].

فَنَزَّهَ نَفْسَهُ أَنْ يَلِدَ كَمَا يَقُولُونَ: هُوَ الأَبُ، وَأَنْ يُولَدَ كَمَا يَقُولُونَ: هُوَ الِابْنُ، وَأَنْ يَكُونَ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، كَمَا يَقُولُونَ: إِنَّ لَهُ مَنْ يُسَاوِيهِ فِي الجَوْهَرِ.

وَإِذَا قُلْتُمْ نَحْنُ نَقُولُ أَحَدِيُّ الذَّاتِ ثُلَاثِيُّ الصِّفَاتِ، قِيلَ لَكُمْ: قَدْ صَرَّحْتُمْ بِإِثْبَاتِ إِلَهٍ حَقٍّ مِنْ إِلَهٍ حَقٍّ وَبِأَنَّهُ مُسَاوٍ لِلْأَبِ فِي الجَوْهَرِ، وَهَذَا تَصْرِيحٌ بِإِثْبَاتِ جَوْهَرٍ ثَانٍ لَا بِصِفَةٍ، فَجَمَعْتُمْ بَيْنَ القَوْلَيْنِ بَيْنَ إِثْبَاتِ ثَلَاثَةِ جَوَاهِرَ، وَبَيْنَ دَعْوَى إِثْبَاتِ جَوْهَرٍ وَاحِدٍ، وَلَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذَا اعْتِذَارُ مَنِ اعْتَذَرَ مِنْكُمْ كَيَحْيَى بْنِ عَدِيٍّ وَنَحْوِهِ حَيْثُ قَالُوا: هَذَا بِمَنْزِلَةِ قَوْلِكَ: زَيْدٌ الطَّبِيبُ الحَاسِبُ الكَاتِبُ، ثُمَّ تَقُولُ: زَيْدٌ الطَّبِيبُ وَزَيْدٌ الحَاسِبُ وَزَيْدٌ الكَاتِبُ.

فَهُوَ مَعَ كُلِّ صِفَةٍ لَهُ حُكْمٌ خِلَافَ حُكْمِهِ مَعَ الصِّفَةِ الأُخْرَى، وَقَدْ يُفَسِّرُونَ الأُقْنُومَ بِهَذَا، فَيَقُولُونَ: الأُقْنُومُ هُوَ الذَّاتُ مَعَ الصِّفَةِ، فَالذَّاتُ مَعَ كُلِّ صِفَةٍ أُقْنُومٌ، فَصَارَتِ الأَقَانِيمُ ثَلَاثَةً، لِأَنَّ هَذَا المِثَالَ لَا يُطَابِقُ قَوْلَكُمْ، فَإِنَّ زَيْدًا هُنَا هُوَ جَوْهَرٌ وَاحِدٌ لَهُ ثَلَاثُ

صِفَاتٍ: الطِّبُّ وَالحِسَابُ وَالكِتَابَةُ، وَلَيْسَ هُنَا ثَلَاثَةُ جَوَاهِرَ، وَلَكِنْ لِكُلِّ صِفَةٍ حُكْمٌ لَيْسَ لِلْأُخْرَى.

وَلَا يَقُولُ عَاقِلٌ: إِنَّ الصِّفَةَ مُسَاوِيَةٌ لِلْمَوْصُوفِ فِي الجَوْهَرِ، وَلَا أَنَّ الذَّاتَ مَعَ هَذِهِ الصِّفَةِ تُسَاوِي الذَّاتَ مَعَ الصِّفَةِ الأُخْرَى فِي الجَوْهَرِ، لِأَنَّ الذَّاتَ وَاحِدَةٌ وَالمُسَاوِي لَيْسَ هُوَ المُسَاوَى، وَلِأَنَّ الذَّاتَ مَعَ الصِّفَةِ هِيَ الأَبُ فَإِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الَّذِي اتَّحَدَ بِالمَسِيحِ فَالمُتَّحِدُ بِهِ هُوَ الأَبُ، وَلِأَنَّكُمْ قُلْتُمْ عَنْ هَذَا الَّذِي قُلْتُمْ: (إِنَّهُ إِلَهٌ حَقٌّ مِنْ إِلَهٍ حَقٍّ، مِنْ جَوْهَرِ أَبِيهِ الَّذِي هُوَ مُسَاوٍ الأَبَ فِي الجَوْهَرِ وَأَنَّهُ نَزَلَ، وَتَجَسَّدَ مِنْ رُوحِ القُدُسِ، وَمِنْ مَرْيَمَ العَذْرَاءِ، وَتَأَنَّسَ وَصُلِبَ وَتَأَلَّمَ) فَاقْتَضَى ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الإِلَهُ الحَقُّ المُسَاوِي لِلْأَبِ فِي الجَوْهَرِ صُلِبَ وَتَأَلَّمَ، فَيَكُونَ اللَّاهُوتُ مَصْلُوبًا مُتَأَلِّمًا، وَهَذَا تُقِرُّ بِهِ طَوَائِفُ مِنْكُمْ، وَطَوَائِفُ تُنْكِرُهُ، لَكِنَّ مُقْتَضَى أَمَانَتِكُمْ هُوَ الأَوَّلُ.

وَأَيْضًا فَإِذَا كَانَ تَجَسَّدَ مِنْ رُوحِ القُدُسِ وَمَرْيَمَ، فَإِنْ كَانَ رُوحُ القُدُسِ هُوَ حَيَاةَ اللهِ، كَمَا زَعَمْتُمْ فَيَكُونُ المَسِيحُ كَلِمَةَ اللهِ وَحَيَاتَهُ، فَيَكُونُ لَاهُوتُهُ أُقْنُومَيْنِ مِنَ الأَقَانِيمِ الثَّلَاثَةِ، وَعِنْدَهُمْ إِنَّمَا هُوَ أُقْنُومُ الكَلِمَةِ فَقَطْ وَإِنْ كَانَ رُوحُ القُدُسِ لَيْسَ هُوَ حَيَاةَ اللهِ بَطَلَ تَفْسِيرُكُمْ لِرُوحِ القُدُسِ بِأَنَّهُ حَيَاةُ اللهِ.

وَقِيلَ لَكُمْ: لَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ رُوحُ القُدُسِ صِفَةً للهِ وَلَا أُقْنُومًا.

ثُمَّ ذَكَرْتُمْ فِي عَقِيدَةِ أَمَانَتِكُمْ أَنَّكُمْ تُؤْمِنُونَ بِرُوحِ القُدُسِ الرَّبِّ المُحْيِي، فَأَثْبَتُّمْ رَبًّا ثَالِثًا، قُلْتُمُ المُنْبَثِقُ مِنَ الأَبِ وَالِانْبِثَاقُ: الِانْفِجَارُ، كَالِانْدِفَاقِ وَالِانْصِبَابِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، يُقَالُ: بَثَقَ السَّيْلُ مَوْضِعَ كَذَا يَبْثُقُهُ بَثْقًا أَيْ خَرَقَهُ وَشَقَّهُ فَانْبَثَقَ أَيِ انْفَجَرَ، فَاقْتَضَى ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الرَّبُّ المُحْيِي انْفَجَرَ مِنَ الأَبِ وَانْدَفَقَ مِنْهُ.

ثُمَّ قُلْتُمْ: هُوَ مَعَ الأَبِ مَسْجُودٌ لَهُ وَمُمَجَّدٌ نَاطِقٌ فِي الأَنْبِيَاءِ فَجَعَلْتُمُوهُ مَعَ الأَبِ مَسْجُودًا لَهُ فَأَثْبَتُّمْ إِلَهًا ثَالِثًا يُسْجَدُ لَهُ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ حَيَاةَ اللهِ الَّتِي هِيَ صِفَتُهُ لَيْسَتْ مُنْبَثِقَةً مِنْهُ، بَلْ هِيَ قَائِمَةٌ بِهِ لَا تَخْرُجُ عَنْهُ البَتَّةَ، وَهِيَ صِفَةٌ لَازِمَةٌ لَهُ لَا تَتَعَلَّقُ بِغَيْرِهِ، فَإِنَّ العِلْمَ يَتَعَلَّقُ بِالمَعْلُومَاتِ، وَالقُدْرَةَ بِالمَقْدُورَاتِ وَالتَّكْلِيمَ بِالمُخَاطَبِينَ بِخِلَافِ التَّكَلُّمِ فَإِنَّهُ صِفَةٌ لَازِمَةٌ، يُقَالُ: عَلِمَ اللهُ كَذَا، وَقَدَرَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى.

وَأَمَّا الحَيَاةُ: فَاللَّفْظُ الدَّالُّ عَلَيْهَا لَازِمٌ لَا يَتَعَلَّقُ بِغَيْرِ الحَيِّ، يُقَالُ حَيَا يَحْيَا حَيَاةً، وَلَا يُقَالُ حَيَا كَذَا وَلَا بِكَذَا، وَإِنَّمَا يُقَالُ: أَحْيَا كَذَا، وَالإِحْيَاءُ فِعْلٌ غَيْرُ كَوْنِهِ حَيًّا، كَمَا أَنَّ التَّعْلِيمَ غَيْرُ العِلْمِ، وَالإِقْدَارَ غَيْرُ القُدْرَةِ، وَالتَّكْلِيمَ غَيْرُ التَّكَلُّمِ، ثُمَّ جَعَلْتُمْ رُوحَ القُدُسِ هَذَا نَاطِقًا فِي الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَحَيَاةُ اللهِ صِفَةٌ قَائِمَةٌ بِهِ لَا تَحِلُّ فِي غَيْرِهِ، وَرُوحُ القُدُسِ الَّذِي تَكُونُ فِي الأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ لَيْسَ هُوَ حَيَاةَ اللهِ القَائِمَةَ بِهِ، وَلَوْ كَانَ رُوحُ القُدُسِ الَّذِي فِي الأَنْبِيَاءِ هُوَ أَحَدَ الأَقَانِيمِ الثَّلَاثَةِ لَكَانَ كُلٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ إِلَهًا مَعْبُودًا قَدِ اتَّحَدَ نَاسُوتُهُ باللَّاهُوتِ كَالمَسِيحِ عِنْدَكُمْ، فَإِنَّ المَسِيحَ لَمَّا اتَّحَدَ بِهِ أَحَدُ الأَقَانِيمِ صَارَ نَاسُوتًا وَلَاهُوتًا، فَإِذَا كَانَ رُوحُ القُدُسِ الَّذِي هُوَ أَحَدُ الأَقَانِيمِ الثَّلَاثَةِ نَاطِقًا فِي الأَنْبِيَاءِ كَانَ كُلٌّ مِنْهُمْ فِيهِ لَاهُوتٌ وَنَاسُوتٌ كَالمَسِيحِ وَأَنْتُمْ لَا تُقِرُّونَ بِالحُلُولِ وَالاتِّحَادِ إِلَّا لِلْمَسِيحِ وَحْدَهُ مَعَ إِثْبَاتِكُمْ لِغَيْرِهِ مَا ثَبَتَ لَهُ.

وَهُمْ تَارَةً يُشَبِّهُونَ الأُقْنُومَيْنِ – العِلْمَ وَالحَيَاةَ الَّتِي يُسَمُّونَهَا الكَلِمَةَ وَرُوحَ القُدُسِ – بِالضِّيَاءِ وَالحَرَارَةِ الَّتِي لِلشَّمْسِ، مَعَ الشَّمْسِ وَيُشَبِّهُونَ ذَلِكَ بِالحَيَاةِ وَالنُّطْقِ الَّذِي لِلنَّفْسِ مَعَ النَّفْسِ، وَهَذَا تَشْبِيهٌ فَاسِدٌ، فَإِنَّهُمْ إِنْ أَرَادُوا بِالضِّيَاءِ وَالحَرَارَةِ مَا يَقُومُ بِذَاتِ الشَّمْسِ، فَذَلِكَ صِفَةٌ لِلشَّمْسِ قَائِمَةٌ بِهَا لَمْ تَحِلَّ بِغَيْرِهَا وَلَمْ تَتَّحِدْ بِغَيْرِهَا، كَمَا أَنَّ صِفَةَ النَّفْسِ كَذَلِكَ هَذَا إِنْ قِيلَ إِنَّ الشَّمْسَ تَقُومُ بِهِ حَرَارَةٌ، وَإِلَّا فَهَذَا مَمْنُوعٌ.

وَالمَقْصُودُ هُنَا: بَيَانُ فَسَادِ كَلَامِهِمْ وَقِيَاسِهِمْ.

وَإِنْ أَرَادُوا مَا هُوَ بَائِنٌ عَنِ الشَّمْسِ قَائِمٌ بِغَيْرِهَا. كَالشُّعَاعِ القَائِمِ بِالهَوَاءِ وَالأَرْضِ، وَالحَرَارَةِ القَائِمَةِ بِذَلِكَ كَانَ هَذَا دَلِيلًا عَلَى فَسَادِ قَوْلِهِمْ مِنْ وُجُوهٍ:

مِنْهَا: أَنَّ هَذِهِ أَعْرَاضٌ مُنْفَصِلَةٌ بَائِنَةٌ عَنِ الشَّمْسِ قَائِمَةٌ بِغَيْرِهَا لَا بِهَا، وَنَظِيرُ هَذَا مَا يَقُومُ بِقُلُوبِ الأَنْبِيَاءِ مِنَ العِلْمِ وَالحِكْمَةِ وَالوَحْيِ الَّذِي أَنْذَرُوا بِهِ، وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ فَلَيْسَ فِي النَّاسُوتِ شَيْئًا مِنَ اللَّاهُوتِ وَإِنَّمَا فِيهِ آثَارُ حِكْمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الحَرَارَةَ وَالضَّوْءَ القَائِمَ بِالهَوَاءِ وَالجُدْرَانِ أَعْرَاضٌ قَائِمَةٌ بِغَيْرِ الشَّمْسِ، وَالكَلِمَةُ وَرُوحُ القُدُسِ عِنْدَهُمْ هُمَا جَوْهَرَانِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ هَذَا لَيْسَ هُوَ الشَّمْسَ، وَلَا صِفَةً مِنْ صِفَاتِ الشَّمْسِ، وَإِنَّمَا هُوَ أَثَرٌ حَاصِلٌ فِي غَيْرِ الشَّمْسِ بِسَبَبِ الشَّمْسِ، وَمِثْلُ هَذَا لَا يُنْكَرُ قِيَامُهُ بِالأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَلَكِنْ لَيْسَ لِلْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِذَلِكَ اخْتِصَاصٌ، فَمَا حَلَّ بِالمَسِيحِ حَلَّ بِغَيْرِهِ مِنَ المُرْسَلِينَ، وَمَا لَمْ يَحِلَّ بِغَيْرِهِ لَمْ يَحِلَّ بِهِ فَلَا اخْتِصَاصَ لَهُ بِأَمْرٍ يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ، وَلَا هُنَا اتِّحَادٌ بَيْنَ اللَّاهُوتِ وَالنَّاسُوتِ، كَمَا لَمْ تَتَّحِدِ الشَّمْسُ وَلَا صِفَاتُهَا القَائِمَةُ بِهَا بِالهَوَاءِ، وَالأَرْضِ الَّتِي حَصَلَ بِهَا الشُّعَاعُ وَالحَرَارَةُ.

❁❁❁

obeikandl.com

فَصْلٌ

رد دعواهم أن الله سمى نفسه أبًا وابنًا وروح قدس

قَالُوا: وَهَذِهِ الأَسْمَاءُ لَمْ نُسَمِّهِ نَحْنُ مَعْشَرَ النَّصَارَى بِهَا مِنْ ذَاتِ أَنْفُسِنَا، بَلِ اللهُ سَمَّى لَاهُوتَهُ بِهَا، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ عَلَى لِسَانِ مُوسَى النَّبِيِّ فِي التَّوْرَاةِ مُخَاطِبًا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلًا: أَلَيْسَ هَذَا الأَبُ الَّذِي صَنَعَكَ وَبَرَاكَ وَاقْتَنَاكَ؟ وَعَلَى لِسَانِهِ أَيْضًا قَائِلًا: وَكَانَ رُوحُ اللهِ تَرِفُّ عَلَى المَاءِ وَقَوْلُهُ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ النَّبِيِّ: رُوحُكَ القُدُسُ لَا تُنْزَعُ مِنِّي، وَأَيْضًا عَلَى لِسَانِهِ بِكَلِمَةِ اللهِ تَشَدَّدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَبِرُوحِ فَاهِ جَمِيعُ قُوَّاتِهِنَّ.

وَقَوْلُهُ عَلَى لِسَانِ أَشْعِيَا: (يَيْبَسُ القَتَادُ وَيَجِفُّ العُشْبُ، وَكَلِمَةُ اللهِ بَاقِيَةٌ إِلَى الأَبَدِ، وَعَلَى لِسَانِ أَيُّوبَ الصِّدِّيقِ، رُوحُ اللهِ خَلَقَنِي وَهُوَ يُعَلِّمُنِي).

وَقَالَ السَّيِّدُ المَسِيحُ فِي الإِنْجِيلِ المُقَدَّسِ لِلتَّلَامِيذِ الأَطْهَارِ: (اذْهَبُوا إِلَى جَمِيعِ العَالَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الأَبِ وَالِابْنِ وَرُوحِ القُدُسِ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَعَلِّمُوهُمْ أَنْ يَحْفَظُوا جَمِيعَ مَا أَوْصَيْتُكُمْ بِهِ)، وَقَدْ قَالَ فِي هَذَا الكِتَابِ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصَّافَّات: ١٧١].

وَقَالَ أَيْضًا: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [المَائِدَة: ١١٠].

وَقَالَ أَيْضًا: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النِّسَاء: ١٦٤].

وَقَالَ فِي سُورَةِ التَّحْرِيمِ: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التَّحْرِيم: ١٢].

وَسَائِرُ المُسْلِمِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ الكِتَابَ كَلَامُ اللهِ وَلَا يَكُونُ كَلَامٌ إِلَّا لِحَيٍّ نَاطِقٍ، وَهَذِهِ صِفَاتٌ جَوْهَرِيَّةٌ تَجْرِي مَجْرَى الأَسْمَاءِ، وَكُلُّ صِفَةٍ مِنْهَا غَيْرُ الأُخْرَى وَالإِلَهُ وَاحِدٌ لَا يَتَبَعَّضُ وَلَا يَتَجَزَّأُ.

وَالجَوَابُ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا- أَنْ تَقُولَ: إِنَّ كَلَامَ الأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ لَا يَكُونُ إِلَّا حَقًّا وَصِدْقًا، وَلَا يَكُونُ فِيهِ شَيْءٌ يُعْلَمُ بُطْلَانُهُ بِصَرِيحِ العَقْلِ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ مَا يَعْجِزُ العَقْلُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ بِدُونِ إِخْبَارِ الأَنْبِيَاءِ، وَلَا يَكُونُ كَلَامُ النَّبِيِّ الَّذِي يُخْبِرُ بِهِ مُنَاقِضًا لِكَلَامِهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وَلَا لِكَلَامِ سَائِرِ الأَنْبِيَاءِ، بَلْ كُلُّ مَا أَخْبَرَتْ بِهِ الأَنْبِيَاءُ فَهُوَ حَقٌّ وَصِدْقٌ، يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا.

وَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِكُلِّ مَا أَخْبَرُوا بِهِ، وَحَكَمَ بِكُفْرِ مَنْ آمَنَ بِبَعْضِ ذَلِكَ، وَكَفَرَ بِبَعْضِهِ، فَمَا عُلِمَ بِصَرِيحِ العَقْلِ لَا يُنَاقِضُ مَا عُلِمَ بِالنَّقْلِ الصَّحِيحِ عَنِ الأَنْبِيَاءِ وَمَا عُلِمَ بِالنَّقْلِ الصَّحِيحِ عَنْ بَعْضِهِمْ لَا يُنَاقِضُ مَا عُلِمَ بِالنَّقْلِ الصَّحِيحِ عَنْ غَيْرِهِ، وَلَكِنْ قَدْ يَخْتَلِفُ بَعْضُ الشَّرْعِ وَالمَنَاهِجِ فِي الأَمْرِ وَالنَّهْيِ.

فَأَمَّا مَا يُخْبِرُونَ بِهِ عَنِ اللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُنَاقِضَ بَعْضُهُ بَعْضًا.

وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَمَا يَنْقُلُونَهُ عَنِ الأَنْبِيَاءِ إِنَّمَا تَتِمُّ الحُجَّةُ بِهِ إِذْ عُلِمَ إِسْنَادُهُ وَمَتْنُهُ، فَيُعْلَمُ أَنَّهُ مَنْقُولٌ عَنْهُمْ نَقْلًا صَحِيحًا، وَنَعْلَمُ أَنَّ تَرْجَمَتَهُ مِنَ العِبْرِيَّةِ إِلَى اللِّسَانِ الآخَرِ، كَالرُّومِيَّةِ وَالعَرَبِيَّةِ وَالسُّرْيَانِيَّةِ تَرْجَمَةٌ صَحِيحَةٌ وَيُعْلَمُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِهِ ذَلِكَ المَعْنَى.

وَلَيْسَ مَعَ النَّصَارَى حُجَّةٌ عَنِ الأَنْبِيَاءِ تَثْبُتُ فِيهَا هَذِهِ المُقَدِّمَاتُ الثَّلَاثُ وَنَحْنُ فِي هَذَا المَقَامِ يَكْفِينَا المَنْعُ، وَالمُطَالَبَةُ لَهُمْ بِتَصْحِيحِ هَذِهِ المُقَدِّمَاتِ فَإِنَّهُمُ ادَّعَوْا أَنَّ التَّثْلِيثَ أَخَذُوهُ عَنِ الأَنْبِيَاءِ، فَنَحْنُ نُطَالِبُهُمْ بِتَصْحِيحِ هَذِهِ المُقَدِّمَاتِ.

وَالجَوَابُ الثَّانِي- أَنَا نُبَيِّنُ تَفْسِيرَ مَا ذَكَرُوهُ مِنَ الكَلِمَاتِ، أَمَّا قَوْلُهُ عَلَى لِسَانِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مُخَاطِبًا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلًا: (أَلَيْسَ الأَبُ الَّذِي صَنَعَكَ وَبَرَاكَ وَاقْتَنَاكَ)؟ فَهَذَا فِيهِ أَنَّهُ سَمَّاهُ أَبًا لِغَيْرِ المَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهَذَا نَظِيرُ قَوْلِهِ لِإِسْرَائِيلَ: (أَنْتَ ابْنِي بِكْرِي)،

وَدَاوُدَ (ابْنِي حَبِيبِي)، وَقَوْلِ المَسِيحِ (أَبِي وَأَبِيكُمْ) وَهُمْ يُسَلِّمُونَ أَنَّ المُرَادَ بِهَذَا فِي حَقِّ غَيْرِ المَسِيحِ بِمَعْنَى الرَّبِّ لَا مَعْنَى التَّوَلُّدِ الَّذِي يَخُصُّونَ بِهِ المَسِيحَ.

الثَّالِثُ- أَنَّ هَذَا حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا كَانَ فِي الكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ تَسْمِيَتُهُ أَبًا لِغَيْرِ المَسِيحِ وَلَيْسَ المُرَادُ بِذَلِكَ إِلَّا مَعْنَى الرَّبِّ، عُلِمَ أَنَّ هَذَا اللَّفْظَ فِي لُغَةِ الكُتُبِ يُرَادُ بِهِ الرَّبُّ، فَيَجِبُ حَمْلُهُ فِي حَقِّ المَسِيحِ عَلَى هَذَا المَعْنَى، لِأَنَّ الأَصْلَ عَدَمُ الِاشْتِرَاكِ فِي الكَلَامِ.

الرَّابِعُ- أَنَّ اسْتِعْمَالَهُ فِي المَعْنَى الَّذِي خَصُّوا بِهِ المَسِيحَ، إِنَّمَا يَثْبُتُ إِذَا عُلِمَ أَنَّهُ أُرِيدَ المَعْنَى الَّذِي ادَّعَوْهُ فِي المَسِيحِ فَلَوْ أُثْبِتَ ذَلِكَ المَعْنَى بِمُجَرَّدِ إِطْلَاقِ لَفْظِ الأَبِ لَزِمَ الدَّوْرُ، فَإِنَّهُ لَا يُعْلَمُ أَنَّهُ أُرِيدَ بِهِ ذَلِكَ المَعْنَى مِنْ حَيْثُ يَثْبُتُ أَنَّهُ كَانَ يُرَادُ بِهِ فِي حَقِّ اللهِ هَذَا المَعْنَى وَلَا يَثْبُتُ ذَلِكَ، حَتَّى يُعْلَمَ أَنَّهُ أُرِيدَ بِهِ ذَلِكَ المَعْنَى فِي حَقِّ المَسِيحِ، فَإِذَا تَوَقَّفَ العِلْمُ بِكُلٍّ مِنْهُمَا عَلَى الآخَرِ لَمْ يُعْلَمْ وَاحِدٌ مِنْهُمَا، فَتَبَيَّنَ أَنَّهُ لَا عِلْمَ عِنْدَهُمْ بِأَنَّهُ أُرِيدَ فِي حَقِّ المَسِيحِ، بِلَفْظِ الأَبِ مَا خَصُّوهُ بِهِ فِي مَحَلِّ النِّزَاعِ.

الوَجْهُ الخَامِسُ- أَنَّهُ يُوجَدُ فِي كُتُبِ الأَنْبِيَاءِ وَكَلَامِهِمْ إِطْلَاقُ اسْمِ الأَبِ، وَالمُرَادُ بِهِ أَبُ اللَّاهُوتِ، وَلَا إِطْلَاقُ اسْمِ الِابْنِ وَالمُرَادُ بِهِ شَيْءٌ مِنَ اللَّاهُوتِ لَا كَلِمَتُهُ وَلَا حَيَاتُهُ، بَلْ لَا يُوجَدُ لَفْظُ الِابْنِ إِلَّا وَالمُرَادُ بِهِ المَخْلُوقُ، فَلَا يَكُونُ لَفْظُ الِابْنِ إِلَّا لِابْنٍ مَخْلُوقٍ.

وَحِينَئِذٍ فَيَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مُسَمَّى الِابْنِ فِي حَقِّ المَسِيحِ هُوَ النَّاسُوتُ، وَهَذَا يُبْطِلُ قَوْلَهُمْ: إِنَّ الِابْنَ وَرُوحَ القُدُسِ أَنَّهُمَا صِفَتَانِ للهِ وَأَنَّ المَسِيحَ اسْمٌ لِلَّاهُوتِ وَالنَّاسُوتِ، فَتَبَيَّنَ أَنَّ نُصُوصَ كُتُبِ الأَنْبِيَاءِ تُبْطِلُ مَذْهَبَ النَّصَارَى، وَتُنَاقِضُ أَمَانَتَهُمْ، فَهُمْ بَيْنَ أَمْرَيْنِ:

* بَيْنَ الإِيمَانِ بِكَلَامِ الأَنْبِيَاءِ وَبُطْلَانِ دِينِهِمْ.

* وَبَيْنَ تَصْحِيحِ دِينِهِمْ وَتَكْذِيبِ الأَنْبِيَاءِ، وَهَذَا هُوَ المَطْلُوبُ.

فَصْلٌ

قَالُوا: وَعَلَى لِسَانِهِ أَيْضًا قَائِلًا: (وَكَانَ رُوحُ اللهِ تَرِفُّ عَلَى المَاءِ).

فَيُقَالُ هَذَا فِي السِّفْرِ الأَوَّلِ - سِفْرِ الخَلِيقَةِ - فِي أَوَّلِهِ، لَمَّا ذَكَرَ أَنَّهُ فِي البَدْءِ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، وَأَنَّهُ كَانَتِ الأَرْضُ مَغْمُورَةً بِالمَاءِ، وَكَانَتْ رُوحُ اللهِ تَرِفُّ عَلَى المَاءِ، أَخْبَرَ أَنَّهُ كَانَ المَاءُ فَوْقَ التُّرَابِ، وَالهَوَاءُ فَوْقَ المَاءِ، وَرُوحُ اللهِ هِيَ الرِّيحُ الَّتِي كَانَتْ فَوْقَ المَاءِ.

هَذَا تَفْسِيرُ جَمِيعِ الأُمَمِ مِنَ المُسْلِمِينَ وَاليَهُودِ وَعُقَلَاءِ النَّصَارَى، وَلَفْظُ الكَلِمَةِ بِالعِبْرِيَّةِ «رُوُّحْ» بِضَمِّ الرَّاءِ وَتَشْدِيدِ الوَاوِ، وَهِيَ الرُّوحُ، وَالرِّيحُ تُسَمَّى رُوحًا، وَجَمْعُهَا أَرْوَاحٌ، وَلَمْ يُرِدْ بِذَلِكَ أَنَّ حَيَاةَ اللهِ كَانَتْ تَرِفُّ عَلَى المَاءِ.

فَإِنَّ هَذَا لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ، فَإِنَّ حَيَاةَ اللهِ صِفَةٌ قَائِمَةٌ بِهِ لَا تُفَارِقُهُ وَلَا تَقُومُ بِغَيْرِهِ فَيَمْتَنِعُ أَنْ تَقُومَ بِمَاءٍ أَوْ غَيْرِهِ فَضْلًا عَنْ أَنْ تَرِفَّ عَلَى المَاءِ وَالَّذِي يَرِفُّ عَلَى المَاءِ، جِسْمٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ، وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنِ الرِّيحِ الَّتِي كَانَتْ تَتَحَرَّكُ فَوْقَ المَاءِ.

وَمِثْلُ هَذَا قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «**لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ فَإِنَّهَا مِنْ رُوحِ اللهِ تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ وَتَأْتِي بِالعَذَابِ فَلَا تَسُبُّوهَا وَلَكِنْ تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا وَسَلُوا اللهَ خَيْرَهَا**»(١) وَقَوْلُهُ: «**إِنِّي لَأَجِدُ نَفَسَ الرَّحْمَنِ مِنْ قِبَلِ اليَمَنِ**»(٢).

---

(١) صحيح.

أخرجه عبد الرزاق [٢٠٠٠٤] وعنه أحمد [٧٦٣١] وأبو داود [٥٠٩٧] والطبراني في «الدعاء» [٩٧١] من طريق معمر عن ابن شهاب عن ثابت بن قيس عن أبي هريرة، به.

وأخرجه الشافعي (١/ ١٧٥-١٧٦) والنسائي في «عمل اليوم» [٩٣١] والطحاوي في «شرح المشكل» [٩٢١]، [٩٢٢]، [٩٢٣] والطبراني في «الدعاء» [٩٧٦] من طرق عن ابن شهاب، به.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٥٤١) قال: حدثنا عصام بن خالد، حدثنا حَرِيزٌ، عن شبيب أبي روح أن أعرابيًا أتى أبا هريرة فقال: يا أبا هريرة حدثنا عن النبي ﷺ فقال: قال النبي ﷺ: «ألا إن الإيمان يمان والحكمة يمانية، وأجد نفس ربكم من قبل اليمن» وقال أبو المغيرة: من قبل المغرب... فذكر الحديث. =

فَصْلٌ

قَالُوا: وَقَوْلُهُ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ النَّبِيِّ ﷺ: «رُوحُكَ القُدُسُ لَا تُنْزَعُ مِنِّي».

فَيُقَالُ: هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ رُوحَ القُدُسِ كَانَتْ فِي دَاوُدَ، فَعُلِمَ بِذَلِكَ أَنَّ رُوحَ القُدُسِ الَّتِي كَانَتْ فِي المَسِيحِ مِنْ هَذَا الجِنْسِ، فَعُلِمَ بِذَلِكَ أَنَّ رُوحَ القُدُسِ لَا تَخْتَصُّ بِالمَسِيحِ، وَهُمْ يُسَلِّمُونَ ذَلِكَ، فَإِنَّ مَا فِي الكُتُبِ الَّتِي بِأَيْدِيهِمْ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّ رُوحَ القُدُسِ حَلَّتْ فِي غَيْرِ المَسِيحِ فِي دَاوُدَ، وَفِي الحَوَارِيِّينَ، وَفِي غَيْرِهِمْ.

وَحِينَئِذٍ فَإِنْ كَانَ رُوحُ القُدُسِ هُوَ حَيَاةَ اللهِ وَمَنْ حَلَّتْ فِيهِ يَكُونُ لَاهُوتًا، لَزِمَ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا وَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ هَؤُلَاءِ فِيهِمْ لَاهُوتٌ وَنَاسُوتٌ كَالمَسِيحِ، وَهَذَا خِلَافُ إِجْمَاعِ المُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى وَاليَهُودِ.

وَيَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ المَسِيحُ فِيهِ لَاهُوتَانِ الكَلِمَةُ وَرُوحُ القُدُسِ، فَيَكُونُ المَسِيحُ مَعَ النَّاسُوتِ أُقْنُومَيْنِ: أُقْنُومُ الكَلِمَةِ، وَأُقْنُومُ رُوحِ القُدُسِ، وَأَيْضًا فَإِنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ صِفَةً للهِ قَائِمَةً بِهِ، فَإِنَّ صِفَةَ اللهِ القَائِمَةُ بِهِ، بَلْ وَصِفَةُ كُلِّ مَوْصُوفٍ لَا تُفَارِقُهُ وَتَقُومُ بِغَيْرِهِ، وَلَيْسَ فِي هَذَا أَنَّ اللهَ اسْمُهُ رُوحُ القُدُسِ، وَلَا أَنَّ حَيَاتَهُ اسْمُهَا رُوحُ القُدُسِ وَلَا أَنَّ رُوحَ القُدُسِ الَّذِي تَجَسَّدَ المَسِيحُ مِنْهُ، وَمِنْ مَرْيَمَ هُوَ حَيَاةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَنْتُمْ قُلْتُمْ إِنَّا مَعَاشِرَ النَّصَارَى لَمْ نُسَمِّهِ بِهَذِهِ الأَسْمَاءِ مِنْ ذَاتِ أَنْفُسِنَا، وَلَكِنَّ اللهَ سَمَّى لَاهُوتَهُ بِهَا، وَلَيْسَ فِيمَا ذَكَرْتُمُوهُ عَنِ الأَنْبِيَاءِ أَنَّ اللهَ سَمَّى نَفْسَهُ، وَلَا شَيْئًا مِنْ صِفَاتِهِ بِرُوحِ القُدُسِ، وَلَا سَمَّى نَفْسَهُ وَلَا شَيْئًا مِنْ صِفَاتِهِ ابْنًا فَبَطَلَ تَسْمِيَتُكُمْ لِصِفَتِهِ الَّتِي هِيَ الحَيَاةُ بِرُوحِ القُدُسِ وَلِصِفَتِهِ الَّتِي هِيَ العِلْمُ بِالِابْنِ.

= وإسناده ضعيف لجهالة شبيب بن نعيم روى عنه أربعة منهم اثنان فيهم جهالة حال، ولم يؤثر توثيقه إلا عن ابن حبان، غير أنه تفرد بهذه الزيادة «وأجد نفس ربكم» وقد تفرد بها وتفرده مع جهالته يعد ما تفرد به منكرًا، أما باقي الحديث فصحيح، فقد تابعه غير واحد عليه إلا هذه الزيادة.

وَأَيْضًا فَأَنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ المَسِيحَ مُخْتَصٌّ بِالكَلِمَةِ وَالرُّوحِ، فَإِذَا كَانَتْ رُوحُ القُدُسِ فِي دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالحَوَارِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ، بَطَلَ مَا خَصَّصْتُمْ بِهِ المَسِيحَ، وَقَدْ عُلِمَ بِالِاتِّفَاقِ أَنَّ دَاوُدَ عَبْدٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ، وَإِنْ كَانَتْ رُوحُ القُدُسِ فِيهِ.

وَكَذَلِكَ المَسِيحُ عَبْدٌ للهِ وَإِنْ كَانَتْ رُوحُ القُدُسِ فِيهِ، فَمَا ذَكَرْتُمُوهُ عَنِ الأَنْبِيَاءِ حُجَّةٌ عَلَيْكُمْ لِأَهْلِ الإِسْلَامِ لَا حُجَّةٌ لَكُمْ.

❁❁❁

obeikandl.com

فَصْلٌ

قَالُوا: وَأَيْضًا عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: بِكَلِمَةِ اللهِ تَشَدَّدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ، وَبِرُوحِ فَاهْ جَمِيعُ قُوَّاتِهِنَّ.

فَيُقَالُ: أَمَّا قَوْلُهُ: بِكَلِمَةِ اللهِ تَشَدَّدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ، فَهُوَ أَيْضًا حُجَّةٌ عَلَيْكُمْ لِوُجُوهٍ:

أَحَدُهَا- أَنَّ اللهَ خَلَقَ الأَشْيَاءَ بِكَلِمَتِهِ الَّتِي هِيَ (كُنْ)، كَمَا قَالَ فِي التَّوْرَاةِ (لِيَكُنْ كَذَا لِيَكُنْ كَذَا لِيَكُنْ كَذَا) وَكَذَلِكَ فِي الزَّبُورِ: (لِأَنَّهُ قَالَ فَكَانُوا، وَهُوَ أَمْرٌ فَخُلِقُوا) فَجَعَلَ كَوْنَهُمْ عَنْ قَوْلِهِ.

وَمِثْلُ قَوْلِهِ فِي الزَّبُورِ: (الكُلُّ بِحِكْمَةٍ صَنَعْتُ)، وَفِي القُرْآنِ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

وَلَيْسَ المَسِيحُ هُوَ هَذِهِ الكَلِمَاتِ.

الثَّانِي- أَنَّ كَلِمَةَ اللهِ اسْمُ جِنْسٍ، فَإِنَّ كَلِمَاتِ اللهِ لَا نِهَايَةَ لَهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف:١٠٩].

وَالتَّوْرَاةُ تَدُلُّ عَلَى تَعَدُّدِ الكَلِمَاتِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، فَالمَسِيحُ لَيْسَ هُوَ مَجْمُوعَ الكَلِمَاتِ، بَلْ خُلِقَ بِكَلِمَةٍ مِنْهَا.

الثَّالِثُ- أَنَّ المَسِيحَ عِنْدَكُمْ هُوَ الخَالِقُ، وَأَنْتُمْ مَعَ قَوْلِكُمْ: إِنَّهُ الِابْنُ وَالكَلِمَةُ، تَقُولُونَ إِنَّهُ الإِلَهُ الخَالِقُ، وَتَقُولُونَ إِنَّهُ إِلَهٌ حَقٌّ مِنْ إِلَهٍ حَقٍّ، وَتَقُولُونَ: إِلَهٌ وَاحِدٌ فَتَجْمَعُونَ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ، وَإِذَا كَانَ هُوَ الخَالِقُ فَهُوَ الَّذِي يُشَدِّدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، لَا يُقَالُ بِهِ تَشَدَّدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ، وَإِنَّمَا يُقَالُ بِهِ فِيمَا كَانَ صِفَةً لِلْمَوْصُوفِ، فَيُقَالُ: خَلَقَ اللهُ الأَشْيَاءَ بِكُنْ، وَخَلَقَ الأَشْيَاءَ بِقُدْرَتِهِ.

وَقَوْلُهُ: (بِكَلِمَتِهِ تَشَدَّدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ) يَقْتَضِي أَنَّ الكَلِمَةَ صِفَةُ فِعْلٍ بِهَا لِأَنَّهَا هِيَ الخَالِقَةُ وَالمَسِيحُ عِنْدَكُمْ هُوَ الخَالِقُ لَيْسَ هُوَ صِفَةُ خَلْقٍ.

وَالرَّابِعُ- أَنَّ كَلِمَةَ اللهِ يُرَادُ بِهَا جِنْسُ كَلِمَاتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وَكَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**»(١) وَحِينَئِذٍ فَالْمُرَادُ أَنَّ اللهَ أَقَامَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِكَلِمَتِهِ، كَقَوْلِهِ (كُنْ) وَلَيْسَ فِي هَذَا تَعَرُّضٌ لِلْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَأَمَّا نَقْلُكُمْ أَنَّهُ قَالَ: (وَبِرُوحِ فَاهْ جَمِيعُ قُوَّاتِهِنَّ) فَهَذِهِ الكَلِمَةُ سَوَاءٌ كَانَتْ حَقًّا أَوْ بَاطِلًا، لَا حُجَّةَ لَكُمْ فِيهَا لِأَنَّهُ إِنْ أُرِيدَ بِهَذِهِ الكَلِمَةِ حَيَاةُ اللهِ فَإِثْبَاتُ حَيَاةِ اللهِ حَقٌّ وَهُوَ لَمْ يُسَمِّ حَيَاةَ اللهِ رُوحَ القُدُسِ، كَمَا زَعَمْتُمْ، وَإِنْ أَرَادَ شَيْئًا غَيْرَ حَيَاةِ اللهِ لَمْ تَنْفَعْكُمْ فَأَنْتُمُ ادَّعَيْتُمْ أَنَّ حَيَاةَ اللهِ رُوحُ القُدُسِ حَتَّى قُلْتُمْ مُرَادُهُ فِي الإِنْجِيلِ بِقَوْلِهِ: (عَمِّدُوا النَّاسَ بِاسْمِ الأَبِ وَالِابْنِ وَالرُّوحِ القُدُسِ) هُوَ حَيَاةُ اللهِ، وَادَّعَيْتُمْ أَنَّ الأَنْبِيَاءَ سَمَّوْهُ بِذَلِكَ وَلَمْ تَذْكُرُوا نَقْلًا عَنِ الأَنْبِيَاءِ أَنَّهُمْ سَمَّوْا حَيَاتَهُ رُوحَ القُدُسِ، بَلْ ذَكَرْتُمْ عَنْهُمْ مَا يُوَافِقُ مَا فِي القُرْآنِ أَنَّ رُوحَ القُدُسِ لَيْسَ المُرَادُ بِهَا حَيَاةَ اللهِ، وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ هَذَا اللَّفْظَ اسْتُعْمِلَ فِي هَذَا وَهَذَا لَمْ يَتَعَيَّنْ أَنَّالمَسِيحَ أَرَادَ بِقَوْلِهِ: (رُوحُ القُدُسِ) حَيَاةَ اللهِ، فَكَيْفَ إِذَا لَمْ يُسْتَعْمَلْ فِي كَلَامِ الأَنْبِيَاءِ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - فِي حَيَاةِ اللهِ قَطُّ.

---

(١) أخرجه الطيالسي [٤٨٧] [٤٨٨] وأحمد (٤/ ٣٩٢، ٣٩٧، ٤٠٢، ٤٠٥) والبخاري [١٢٣]، [٢٨١٠]، [٣١٢٦]، [٧٤٥٨] ومسلم [١٩٠٤] وأبو داود [٢٥١٧] والترمذي [١٦٤٦] والنسائي (٦/ ٢٣) وابن ماجه [٢٧٨٣] وابن حبان [٤٦٣٦] والبيهقي (٩/ ١٦٧-١٦٨) والبغوي [٢٦٢٦] من طريق أبي وائل عن أبي موسى قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل حمية ويقاتل شجاعة ويقاتل رياء فأنى ذلك في سبيل الله؟ قال: فذكره.

فَصْلٌ

بيان المعنى الصحيح لروح الله

قَالُوا: وَقَوْلُهُ عَلَى لِسَانِ أَيُّوبَ الصِّدِّيقِ: رُوحُ اللهِ خَلَقَنِي وَهُوَ يُعَلِّمُنِي.

فَيُقَالُ: هَذَا لَا حُجَّةَ فِيهِ لِأَنَّكُمُ ادَّعَيْتُمْ أَنَّ الأَنْبِيَاءَ سَمَّتْ حَيَاةَ اللهِ رُوحَ القُدُسِ، وَهَذَا لَمْ يَقُلْ رُوحُ القُدُسِ، بَلْ قَالَ رُوحُ اللهِ.

وَرُوحُ اللهِ يُرَادُ بِهَا المَلَكُ الَّذِي هُوَ رُوحٌ اصْطَفَاهُ اللهُ فَأَحَبَّهَا، كَمَا قَالَ فِي القُرْآنِ: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مَرْيَمَ: ١٧-١٩].

فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ أَرْسَلَ إِلَيْهَا رُوحَهُ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا، وَتَبَيَّنَ أَنَّهُ رَسُولُهُ.

فَعُلِمَ أَنَّ المُرَادَ بِالرُّوحِ مَلَكٌ، هُوَ رُوحٌ اصْطَفَاهَا فَأَضَافَهَا إِلَيْهِ، كَمَا يُضَافُ إِلَيْهِ الأَعْيَانُ الَّتِي خَصَّهَا بِخَصَائِصَ يُحِبُّهَا.

كَقَوْلِهِ: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشَّمْسِ: ١٣].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحَجِّ: ٢٦].

وَقَوْلِهِ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإِنْسَانِ: ٦].

وَالمُضَافُ إِلَى اللهِ إِنْ كَانَ صِفَةً لَمْ تَقُمْ بِمَخْلُوقٍ كَالعِلْمِ وَالقُدْرَةِ وَالكَلَامِ وَالحَيَاةِ، كَانَ صِفَةً لَهُ، وَإِنْ كَانَ عَيْنًا قَائِمَةً بِنَفْسِهَا أَوْ صِفَةً لِغَيْرِهِ، كَالبَيْتِ وَالنَّاقَةِ وَالعَبْدِ وَالرُّوحِ، كَانَ مَخْلُوقًا مَمْلُوكًا مُضَافًا إِلَى خَالِقِهِ وَمَالِكِهِ، وَلَكِنَّ الإِضَافَةَ تَقْتَضِي اخْتِصَاصَ المُضَافِ بِصِفَاتٍ تَمَيَّزَ بِهَا عَنْ غَيْرِهِ، حَتَّى اسْتَحَقَّ الإِضَافَةَ، كَمَا اخْتَصَّتِ الكَعْبَةُ وَالنَّاقَةُ وَالعِبَادُ الصَّالِحُونَ بِأَنْ يُقَالَ فِيهِمْ (بَيْتُ اللهِ) وَ (نَاقَةُ اللهِ) وَ (عِبَادُ اللهِ)، كَذَلِكَ اخْتَصَّتِ الرُّوحُ المُصْطَفَاةُ بِأَنْ يُقَالَ لَهَا رُوحُ اللهِ.

بِخِلَافِ الأَرْوَاحِ الخَبِيثَةِ كَأَرْوَاحِ الشَّيَاطِينِ وَالكُفَّارِ، فَإِنَّهَا مَخْلُوقَةٌ للهِ، وَلَا تُضَافُ إِلَيْهِ إِضَافَةَ الأَرْوَاحِ المُقَدَّسَةِ، كَمَا لَا تُضَافُ إِلَيْهِ الجَمَادَاتُ كَمَا تُضَافُ الكَعْبَةُ، وَلَا نُوقُ النَّاسِ، كَمَا تُضَافُ نَاقَةُ صَالِحٍ الَّتِي كَانَتْ آيَةً مِنْ آيَاتِهِ.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣].

وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَهَذَا اللَّفْظُ إِنْ كَانَ ثَابِتًا عَنِ النَّبِيِّ وَتُرْجِمَ تَرْجَمَةً صَحِيحَةً، فَقَدْ يَكُونُ مَعْنَاهُ أَنَّ المَلَكَ صَوَّرَنِي فِي بَطْنِ أُمِّي، وَهُوَ يُعَلِّمُنِي، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **«إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا مَلَكًا فَصَوَّرَهَا وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى، فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ المَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَجَلُهُ؟ فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ المَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ رِزْقُهُ؟ فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا يَشَاءُ، وَيَكْتُبُ المَلَكُ، ثُمَّ يَخْرُجُ المَلَكُ بِالصَّحِيفَةِ فِي يَدِهِ، فَلَا يُزَادُ عَلَى أَمْرٍ وَلَا يُنْقَصُ»** (رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ حُذَيْفَةَ بْنِ أُسَيْدٍ الغِفَارِيِّ).

وَقَدْ يُقَالُ: مَنْ هَذَا قَوْلُهُ فِي الزَّبُورِ فِي مَزْمُورِ الخَلِيقَةِ: تُرْسِلُ رُوحَكَ فَيُخْلَقُونَ، وَفِي المَزْمُورِ أَيْضًا هُوَ قَالَ: فَكَانُوا وَأُمِرَ فَخُلِقُوا فَقَدْ يُضَافُ الخَلْقُ إِلَى المَلَكِ.

وَمِنْ هَذَا البَابِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ يَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ، وَكَذَلِكَ المَلَكُ يَخْلُقُ النُّطْفَةَ فِي الرَّحِمِ بِإِذْنِ اللهِ.

وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ أَنَّ حَيَاةَ اللهِ خَلَقَتْنِي وَتُعَلِّمُنِي، فَإِنَّ الصِّفَةَ لَا تَخْلُقُ وَلَا تُعَلِّمُ، إِنَّمَا يَخْلُقُ وَيُعَلِّمُ الرَّبُّ المَوْصُوفُ الَّذِي خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ، وَلَكِنْ هُوَ سُبْحَانَهُ يَخْلُقُ بِوَاسِطَةِ المَلَائِكَةِ، فَإِنَّ المَلَائِكَةَ رُسُلُ اللهِ فِي

الخَلْقِ، فَجَازَ أَنْ يُضَافَ الفِعْلُ إِلَى الوَسَائِطِ تَارَةً، وَإِلَى الرَّبِّ أُخْرَى، وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي الكُتُبِ الإِلَهِيَّةِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ كَمَا فِي القُرْآنِ: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢].

وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦١].

وَفِي مَوْضِعٍ ثَالِثٍ: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة: ١١].

وَالجَمِيعُ حَقٌّ، فَإِذَا وُجِدَ لَفْظٌ لَهُ مَعْنًى فِي كَلَامِ بَعْضِ الأَنْبِيَاءِ، وَلَمْ يُوجَدْ لَهُ مَعْنًى يُخَالِفُ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِهِمْ، كَانَ حَمْلُهُ عَلَى ذَلِكَ المَعْنَى أَوْلَى مِنْ حَمْلِهِ عَلَى مَعْنًى يُخَالِفُ كَلَامَهُمْ، وَلَا يُوجَدُ فِي كَلَامِهِمْ أَنَّ حَيَاةَ اللهِ تُسَمَّى رُوحًا، وَلَا أَنَّ صِفَاتِ اللهِ تَخْلُقُ المَخْلُوقَاتِ.

❁ ❁ ❁

obeikandl.com

فَصْلٌ

بيان المعنى الصحيح لكلمة الله

قَالُوا: وَقَوْلُهُ عَلَى لِسَانِ أَشْعِيَا النَّبِيِّ: (يَبْبَسُ القَتَادُ، وَيَجِفُّ العُشْبُ، وَكَلِمَتُهُ بَاقِيَةٌ إِلَى الأَبَدِ).

فَيُقَالُ: إِمَّا أَنْ يُرِيدَ بِكَلِمَةِ اللهِ عِلْمَهُ، أَوْ كَلِمَةً مُعَيَّنَةً، أَوْ تَكُونُ كَلِمَةُ اللهِ اسْمَ جِنْسٍ، وَعَلَى التَّقْدِيرَاتِ الثَّلَاثَةِ لَا حُجَّةَ لَكُمْ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ كَلِمَةُ اللهِ اسْمَ جِنْسٍ لِكُلِّ مَا تَكَلَّمَ اللهُ بِهِ كَمَا قَالَ: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ»(١).

وَلِهَذَا جَمَعَهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

فَالْمُرَادُ بِذَلِكَ أَنَّ مَا قَالَهُ اللهُ فَهُوَ حَقٌّ ثَابِتٌ لَا يَبْطُلُ.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [الأعراف: ١٣٧].

يَعْنِي بِتَمَامِهَا نَفَاذَ مَا وَعَدَهُمْ بِهِ مِنَ النَّصْرِ عَلَى فِرْعَوْنَ، وَإِهْلَاكِهِ، وَإِخْرَاجِهِمْ إِلَى الشَّامِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

---

(١) سبق قبل قليل.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ [الكهف: ٢٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ [الفتح: ١٥].

وَمِنْ هَذَا البَابِ قَوْلُ المَسِيحِ: «السَّمَاءُ وَالأَرْضُ يَزُولَانِ، وَكَلَامِي لَا يَزُولُ»، فَإِنْ أَرَادَ عِلْمَ اللهِ، فَعِلْمُ اللهِ بَاقٍ سَوَاءٌ أَرَادَ بِهِ عِلْمَهُ القَائِمَ بِذَاتِهِ أَوْ مَعْلُومَهُ الَّذِي أَخْبَرَ بِبَقَائِهِ فَلَا حُجَّةَ لَكُمْ فِيهِ، وَكَذَلِكَ إِنْ أَرَادَ كَلِمَةً مُعَيَّنَةً فَإِنَّ المَسِيحَ عِنْدَكُمْ لَيْسَ كَلِمَةً مُعَيَّنَةً مِنْ كَلَامِهِ، بَلْ هُوَ عِنْدَكُمْ هُوَ الكَلِمَةُ وَهُوَ اللهُ الخَالِقُ وَلَيْسَ فِي هَذَا اللَّفْظِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ بِالكَلِمَةِ المَسِيحَ وَالمَسِيحُ عِنْدَكُمْ أَزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ لَا يُوصَفُ بِالبَقَاءِ دُونَ القِدَمِ وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ أَرَادَ بِالكَلِمَةِ المَسِيحَ فَنَحْنُ لَا نُنْكِرُ أَنَّهُ يُسَمَّى بِالكَلِمَةِ، لِأَنَّهُ قَالَ لَهُ: كُنْ فَكَانَ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُ ذَلِكَ، وَيُرِيدُ بِذَلِكَ إِمَّا بَقَاؤُهُ إِلَى أَنْ يَنْزِلَ إِلَى الأَرْضِ، وَإِمَّا أَنْ يُرِيدَ بَقَاءَ ذِكْرِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَلِسَانِ صِدْقٍ لَهُ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ.

وَمِمَّا يُوَضِّحُ هَذَا وَأَنَّهُ لَيْسَ المُرَادُ بِهِ مَا يَدَّعُونَهُ، أَنَّهُ قَالَ: وَكَلِمَةُ اللهِ بَاقِيَةٌ إِلَى الأَبَدِ فَوَصَفَهَا بِالبَقَاءِ دُونَ القِدَمِ.

وَعِنْدَهُمْ أَنَّ الكَلِمَةَ المَوْلُودَةَ مِنَ الأَبِ قَدِيمَةٌ أَزَلِيَّةٌ لَمْ تَزَلْ وَلَا تَزَالُ وَمِثْلُ هَذَا لَا يَحْتَاجُ أَنْ يُوصَفَ بِالدَّوَامِ وَالبَقَاءِ، بِخِلَافِ مَا وَعَدَ بِهِ مِنَ النَّعِيمِ وَالرَّحْمَةِ وَالثَّوَابِ، فَإِنَّهُ يُوصَفُ بِالبَقَاءِ وَالدَّوَامِ كَمَا فِي القُرْآنِ: ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ ﴾ [الرعد: ٣٥]. وَقَوْلِهِ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ [ص: ٥٤].

وَفِي الزَّبُورِ: (اعْتَرِفُوا لِلرَّبِّ، فَإِنَّهُ صَالِحٌ، وَإِنَّهُ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتُهُ).

فَصْلٌ

إبطال استدلالهم بالتغطيس على الأقانيم

قَالُوا: وَقَالَ السَّيِّدُ المَسِيحُ فِي الإِنْجِيلِ المُقَدَّسِ لِتَلَامِيذِهِ الأَطْهَارِ: (اذْهَبُوا إِلَى جَمِيعِ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الأَبِ وَالِابْنِ وَرُوحِ القُدُسِ الإِلَهِ الوَاحِدِ، وَعَلِّمُوهُمْ أَنْ يَحْفَظُوا جَمِيعَ مَا أُوصِيكُمْ بِهِ).

فَيُقَالُ لَهُم: هَذَا عُمْدَتُكُمْ عَلَى مَا تَدَّعُونَهُ مِنَ الأَقَانِيمِ الثَّلَاثَةِ وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ لَا نَصًّا وَلَا ظَاهِرًا، فَإِنَّ لَفْظَ الِابْنِ لَمْ يُسْتَعْمَلْ قَطُّ فِي الكُتُبِ الإِلَهِيَّةِ فِي مَعْنَى صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللهِ، وَلَمْ يُسَمِّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ عِلْمَ اللهِ ابْنَهُ وَلَا سَمَّوْا كَلَامَهُ ابْنَهُ، وَلَكِنْ عِنْدَكُمْ أَنَّهُمْ سَمَّوْا عَبْدَهُ أَوْ عِبَادَهُ ابْنَهُ أَوْ بَنِيهِ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَدَعْوَاكُمْ أَنَّ المَسِيحَ أَرَادَ بِالعِلْمِ ابْنَ اللهِ وَكَلَامَهُ - دَعْوَى فِي غَايَةِ الكَذِبِ عَلَى المَسِيحِ، وَهُوَ حَمْلٌ لِلَفْظِهِ عَلَى مَا لَمْ يَسْتَعْمِلْهُ هُوَ وَلَا غَيْرُهُ فِيهِ لَا حَقِيقَةً وَلَا مَجَازًا، فَأَيُّ كَذِبٍ وَتَحْرِيفٍ لِكَلَامِ الأَنْبِيَاءِ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا.

وَلَوْ كَانَ لَفْظُ الِابْنِ يُسْتَعْمَلُ فِي صِفَةِ اللهِ لَسُمِّيَتْ حَيَاتُهُ ابْنًا، وَقُدْرَتُهُ ابْنًا، فَتَخْصِيصُ العِلْمِ، بِلَفْظِ الِابْنِ دُونَ الحَيَاةِ خَطَأٌ ثَانٍ لَوْ كَانَ لَفْظُ الِابْنِ يُسْتَعْمَلُ فِي صِفَةِ اللهِ، فَكَيْفَ إِذَا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ.

وَكَذَلِكَ رُوحُ القُدُسِ لَمْ يَسْتَعْمِلُوهَا فِي حَيَاةِ اللهِ، وَلَا أَرَادُوا بِهَذَا اللَّفْظِ حَيَاةَ اللهِ الَّتِي هِيَ صِفَتُهُ، وَإِنَّمَا أَرَادُوا بِذَلِكَ مَا يُنَزِّلُهُ عَلَى الصِّدِّيقِينَ وَالأَنْبِيَاءِ، وَيُؤَيِّدُهُمْ بِهِ كَمَا فِي قَوْلِ دَاوُدَ: (رُوحُكَ القُدُسُ لَا تُنْزَعُ مِنِّي)، وَعِنْدَهُمْ أَنَّ رُوحَ القُدُسِ حَلَّتْ فِي الحَوَارِيِّينَ، وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ رُوحَ القُدُسِ يُرَادُ بِهِ المَلَكُ، وَيُرَادُ بِهِ مَا يَجْعَلُهُ فِي القُلُوبِ مِنَ الهُدَى وَالقُوَّةِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ فِي بَعْضِ النُّبُوَّاتِ: (وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ أَسْكُبُ مِنْ رُوحِي عَلَى كُلِّ قِدِّيسٍ) وَفِي زَبُورِ دَاوُدَ (رُوحُكَ الصَّالِحُ يَهْدِينِي فِي أَرْضٍ مُسْتَقِيمَةٍ.

يُوَضِّحُ هَذَا أَنَّهُمْ قَالُوا فِي أَمَانَتِهِم: (الَّذِي مِنْ أَجْلِنَا - نَحْنُ البَشَرَ - وَمِنْ أَجْلِ خَلَاصِنَا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ وَتَجَسَّدَ مِنْ رُوحِ القُدُسِ، وَمِن مَرْيَمَ العَذْرَاءِ) وَذَكَرُوا أَنَّ ذَلِكَ فِي الكُتُبِ المُقَدَّسَةِ، وَالَّذِي فِي الكُتُبِ المُقَدَّسَةِ لَا يَكُونُ إِلَّا حَقًّا، وَلَا رَيْبَ أَنَّ فِيهَا مِثْلَ مَا فِي القُرْآنِ، وَفِي القُرْآنِ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَ رُوحَهُ إِلَى مَرْيَمَ فَنَفَخَ فِيهَا فَحَمَلَت بِالمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مَرْيَمَ: ١٧-٢٢].

إِلَى آخِرِ القِصَّةِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأَنْبِيَاءِ: ٩١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التَّحْرِيمِ: ١٢].

وَهَذَا الرُّوحُ هُوَ الرَّسُولُ كَمَا قَالَ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مَرْيَمَ: ١٩].

وَنُفِخَ فِيهَا مِنْ هَذَا الرُّوحِ فَكَانَ المَسِيحُ مَخْلُوقًا مِنْ هَذَا الرُّوحِ، وَمِنْ أُمِّهِ مَرْيَمَ كَمَا قَالُوا فِي الأَمَانَةِ: إِنَّهُ تَجَسَّدَ مِن مَرْيَمَ، وَمِنْ رُوحِ القُدُسِ، لَكِنِ اعْتَقَدُوا أَنَّ رُوحَ القُدُسِ الَّتِي خُلِقَ المَسِيحُ مِنْهَا وَمِن مَرْيَمَ هِيَ حَيَاةُ اللهِ، وَهَذَا لَيْسَ فِي الكُتُبِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ، بَلِ الكُتُبُ كُلُّهَا صَرِيحَةٌ فِي نَقِيضِ هَذَا، وَهُوَ أَيْضًا مُنَاقِضٌ لِقَوْلِهِمْ إِنَّ المُتَّحِدَ بِالمَسِيحِ هُوَ أُقْنُومُ الكَلِمَةِ، وَهُوَ العِلْمُ، فَإِنْ كَانَ قَدْ تَجَسَّدَ مِن مَرْيَمَ، وَأُقْنُومُ الكَلِمَةِ لَمْ يَكُنْ مُتَجَسِّدًا مِنْ رُوحِ القُدُسِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ رُوحِ القُدُسِ لَمْ يَكُنْ مِنَ الكَلِمَةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْهُمَا جَمِيعًا كَانَ المَسِيحُ أُقْنُومَيْنِ: أُقْنُومَ الكَلِمَةِ وَأُقْنُومَ الرُّوحِ.

orthodoxkanal.com

وَالنَّصَارَى بِفِرَقِهِمُ الثَّلَاثَةِ كُلُّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّمَا الْمُتَّحِدُ بِهِ أُقْنُومُ الكَلِمَةِ لَا أُقْنُومُ الحَيَاةِ، فَتَبَيَّنَ تَنَاقُضُهُمْ فِي أَمَانَتِهِم، وَتَبَيَّنَ خَطَؤُهُمْ فِيمَا فَسَّرُوا بِهِ كَلَامَ الأَنْبِيَاءِ.

وَتَبَيَّنَ أَنَّ مَا ثَبَتَ عَنِ الأَنْبِيَاءِ فَهُوَ حَقٌّ مُوَافِقٌ لِمَا أَخْبَرَ بِهِ مُحَمَّدٌ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا يُنَاقِضُ شَيْئًا مِنْ كَلَامِ الأَنْبِيَاءِ، كَمَا أَنَّهُ لَا يُنَاقِضُ شَيْئًا مِنْ كَلَامِهِمْ صَرِيحُ المَعْقُولِ، وَتَبَيَّنَ أَنَّهُمْ حَمَلُوا كَلَامَ الأَنْبِيَاءِ فِي لَفْظِ الِابْنِ وَرُوحِ القُدُسِ وَغَيْرِهِ عَلَى مَا لَمْ يُوجَدِ اسْتِعْمَالُ هَذَا اللَّفْظِ فِيهِ، وَتَرَكُوا حَمْلَهُ عَلَى المَعْنَى المَوْجُودِ فِي كَلَامِهِم، وَهَذَا مِنْ أَبْلَغِ مَا يَكُونُ مِنْ تَحْرِيفِ كَلَامِهِمْ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَتَبْدِيلِ مَعَانِي كَلَامِ اللهِ، فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُحْمَلَ لَفْظُ رُوحِ القُدُسِ عَلَى مَعْنًى لَمْ يَسْتَعْمِلْهُ فِيهِ الأَنْبِيَاءُ، وَلَا أَرَادُوهُ بِهِ، وَيُتْرَكُ حَمْلُهُ عَلَى المَعْنَى المَعْرُوفِ الَّذِي يَسْتَعْمِلُونَهُ فِيهِ دَائِمًا.

وَهَلْ هَذَا إِلَّا مِنْ فِعْلِ مَنْ يُحَرِّفُ كَلَامَ الأَنْبِيَاءِ، وَيَفْتَرِي الكَذِبَ عَلَيْهِم؟ بَلْ ظَاهِرُ هَذَا الكَلَامِ أَنْ يُعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الأَبِ الَّذِي يُرِيدُونَ بِهِ - فِي لُغَتِهِمْ - الرَّبَّ، وَالِابْنِ الَّذِي يُرِيدُونَ بِهِ - فِي لُغَتِهِمْ - المُرَبِّيَ، وَهُوَ هُنَا المَسِيحُ وَرُوحِ القُدُسِ وَهُوَ رُوحُ القُدُسِ الَّذِي أَيَّدَ اللهُ بِهِ المَسِيحَ مِنَ المَلَكِ وَالوَحْيِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَبِهَذَا فَسَّرَ هَذَا الكَلَامَ مَنْ فَسَّرَهُ مِنْ أَكَابِرِ عُلَمَائِهِم.

❁❁❁

obeikandl.com

فَصْلٌ

فَهَذَا مَا ذَكَرُوهُ فِي كِتَابِهِمْ يَحْتَجُّونَ بِهَا عَلَى مَا يَعْتَقِدُونَهُ مِنَ الأَقَانِيمِ الثَّلَاثَةِ قَائِلِينَ: إِنَّ تَسْمِيَةَ اللهِ أَنَّهُ أَبٌ وَابْنٌ وَرُوحُ القُدُسِ أَسْمَاءٌ لَمْ نُسَمِّهِ نَحْنُ النَّصَارَى بِهَا مِنْ ذَاتِ أَنْفُسِنَا، بَلِ اللهُ سَمَّى لَاهُوتَهُ بِهَا.

وَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّهُ لَيْسَ فِيمَا ذَكَرُوهُ عَنِ الأَنْبِيَاءِ مَا يَدُلُّ لَا نَصًّا وَلَا ظَاهِرًا عَلَى أَنَّ أَحَدًا مِنَ الأَنْبِيَاءِ سَمَّى اللهَ، وَلَا شَيْئًا مِنْ صِفَاتِهِ ابْنًا وَلَا رُوحَ قُدُسٍ.

وَتَبَيَّنَ أَنَّ تَسْمِيَتَهُمْ لِعِلْمِ اللهِ وَكَلَامِهِ ابْنًا، وَتَسْمِيَتَهُمْ لِحَيَاتِهِ رُوحَ القُدُسِ - أَسْمَاءٌ ابْتَدَعُوهَا مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مَعَهُمْ عَلَى مَا ادَّعَوْهُ مِنَ الأَقَانِيمِ حُجَّةٌ أَصْلًا، لَا سَمْعِيَّةٌ، وَلَا عَقْلِيَّةٌ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لِقَوْلِهِمْ بِالتَّثْلِيثِ وَحَصْرِهِمْ لِصِفَاتِ اللهِ فِي ثَلَاثَةٍ مُسْتَنَدٌ شَرْعِيٌّ.

كَمَا تَبَيَّنَ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ مُسْتَنَدٌ عَقْلِيٌّ، وَأَنَّ القَوْمَ مِمَّنْ قِيلَ فِيهِمْ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [٨:١٠].

وَمِمَّنْ قِيلَ فِيهِمْ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

❁ ❁ ❁

فَصْلٌ

رد وجود حجة على الأقانيم في القرآن

ثُمَّ أَخَذُوا يَزْعُمُونَ أَنَّ فِيمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ - حُجَّةً لَهُمْ عَلَى الأَقَانِيمِ الَّتِي ادَّعَوْهَا، وَهُمُ ابْتَدَعُوا القَوْلَ بِالأَقَانِيمِ وَالتَّثْلِيثِ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ مُحَمَّدٌ ﷺ.

وَذَلِكَ مَعْرُوفٌ عِنْدَهُمْ مِنْ حِينِ ابْتَدَعُوا الأَمَانَةَ الَّتِي لَهُمْ، الَّتِي وَضَعَهَا الثَّلَاثُمِائَةِ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ مِنْهُمْ بِحَضْرَةِ قُسْطَنْطِينَ المَلِكِ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مُسْتَنَدٌ عَقْلِيٌّ، وَلَا سَمْعِيٌّ عَنِ الأَنْبِيَاءِ قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُمْ مُسْتَنَدٌ فِيمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ بَعْدَ ابْتِدَاعِهِمُ الأَمَانَةَ؟

لَاسِيَّمَا مَعَ العِلْمِ الظَّاهِرِ المُتَوَاتِرِ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كَفَّرَهُمْ فِي الكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ وَضَلَّلَهُم، وَجَاهَدَهُمْ بِنَفْسِهِ وَأَمَرَ بِجِهَادِهِمْ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة:١٧].

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة:٣٠].

وَقَالَ: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ [المائدة:٧٣].

وَقَالَ: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ [النساء:١٧١].

وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ.

وَقَالُوا: وَقَدْ قَالَ فِي هَذَا الكِتَابِ أَيْضًا: وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الصَّالِحِينَ.

فَيُقَالُ لَهُم: حَرَّفْتُمْ لَفْظَ الآيَةِ وَمَعْنَاهَا؛ فَإِنَّ لَفْظَهَا: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣].

فَالكَلِمَةُ الَّتِي سَبَقَتْ لِعِبَادِهِ المُرْسَلِينَ قَوْلُهُ: ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴾.

أَخْبَرَ أَنَّهُ سَبَقَ مِنْهُ كَلِمَةٌ لِعِبَادِهِ المُرْسَلِينَ لَيَنْصُرَنَّهُم، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ [طه: ١٢٩].

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [هود: ١١٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ [غافر: ٦].

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ١٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة: ١٣].

وَالكَلِمَةُ فِي لُغَةِ العَرَبِ: هِيَ الجُمْلَةُ المُفِيدَةُ سَوَاءً كَانَتْ جُمْلَةً اسْمِيَّةً أَوْ فِعْلِيَّةً، وَهِيَ القَوْلُ التَّامُّ، وَكَذَلِكَ الكَلَامُ عِنْدَهُمْ هُوَ الجُمْلَةُ التَّامَّةُ.

قَالَ سِيبَوَيْهِ: وَاعْلَمْ أَنَّهُمْ يَحْكُونَ بِالقَوْلِ مَا كَانَ كَلَامًا وَلَا يَحْكُونَ بِهِ مَا كَانَ قَوْلًا، وَلَكِنَّ النُّحَاةَ اصْطَلَحُوا عَلَى أَنْ يُسَمُّوا مَا تُسَمِّيهِ العَرَبُ حَرْفًا يُسَمُّونَهُ كَلِمَةً مِثْلَ زَيْدٍ وَعَمْرٍو، وَمِثْلَ: قَعَدَ وَذَهَبَ، وَكُلُّ حَرْفٍ جَاءَ لِمَعْنًى لَيْسَ بِاسْمٍ وَلَا فِعْلٍ، مِثْلُ: إِنْ وَثُمَّ، وَهَلْ وَلَعَلَّ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۖ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ [الكهف: ٤-٥].

فَسَمَّى هَذِهِ الجُمْلَةَ كَلِمَةً.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

وَهُوَ قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**»(١)، وَقَالَ ﷺ: «**أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلٌ**»(٢).

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ**»(٣)، وَلَمَّا شَاعَ عِنْدَ الْمُشْتَغِلِينَ بِالنَّحْوِ اسْتِعْمَالُ لَفْظِ الْكَلِمَةِ فِي الِاسْمِ أَوِ الفِعْلِ، وَحُرِّفَ الْمَعْنَى

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٢) والبخاري [٦٤٠٦] [٦٦٨٢] [٧٥٦٣] ومسلم [٢٦٩٤] والترمذي [٣٤٦٧] والنسائي في «عمل اليوم» [٨٣٠] وابن ماجه [٣٨٠٦] وأبو يعلى [٦٠٩٦] وابن حبان [٨٣١] والبيهقي في «الأسماء» ص[٤٩٩] والبغوي [١٢٦٤] من طريق محمد بن فضيل عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة، به.

(٢) أخرجه البخاري [٣٨٤١] ومسلم [٢٢٥٦] وابن ماجه [٣٧٥٧] عن أبي هريرة، وقد خرجته مطولًا في «السيرة».

(٣) أخرجه الطيالسي [١٠٣٦] وابن أبي شيبة (٣/ ١١٠) وأحمد (٤/ ٢٥٨-٢٥٩) والبخاري [١٤١٧] ومسلم [١٠١٦] والطبراني (١٧/ ٢٠٧-٢٠٨-٢٠٩-٢١٠-٢١١-٢١٢-٢١٣-٢١٤) من طريق عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن معقل عن عدي بن حاتم، به.
وأخرجه البخاري [١٤١٣] [٣٥٩٥] وابن حبان [٤٧٣] والطبراني (١٧/ ٢٢٣-٢٢٤-٢٢٥) من طريق محل بن خليفة عن عدي، به.
وأخرجه أحمد (٤/ ٢٥٦) والنسائي (٥/ ٧٥) والطبراني (١٧/ ٢٢٠٦) وابن السني في «عمل اليوم» [٣٢٢] من طريق شعبة عن محل، به.
وله طرق خرجتها في «عمل اليوم» لابن السني [٣٢٢] فليراجع.

صَارُوا يَظُنُّونَ أَنَّ هَذَا هُوَ كَلَامُ العَرَبِ، ثُمَّ لَمَّا وَجَدَ بَعْضُهُمْ مَا سَمِعَهُ مِنْ كَلَامِ العَرَبِ أَنَّهُ يُرَادُ بِالكَلِمَةِ الجُمْلَةُ التَّامَّةُ صَارَ يَقُولُ: وَكَلِمَةٍ بِهَا كَلَامٌ قَدْ يُؤَمُّ، فَيَجْعَلُ ذَلِكَ مِنَ القَلِيلِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُ ذَلِكَ مَجَازًا، وَلَيْسَ الأَمْرُ كَذَلِكَ، بَلْ هَذَا اصْطِلَاحُ هَؤُلَاءِ النُّحَاةِ، فَإِنَّ العَرَبَ لَمْ يُعْرَفْ عَنْهُمْ أَنَّهُمُ اسْتَعْمَلُوا لَفْظَ الكَلِمَةِ وَالكَلَامِ إِلَّا فِي الجُمْلَةِ التَّامَّةِ، وَهَكَذَا نَقَلَ عَنْهُمْ أَئِمَّةُ النَّحْوِ كَسِيبَوَيْهِ وَغَيْرِهِ.

فَكَيْفَ يُقَالُ: إِنَّ هَذَا هُوَ المَجَازُ، وَإِنَّ هَذَا قَلِيلٌ وَكَثِيرٌ.

كَمَا أَنَّ لَفْظَ القَدِيمِ فِي لُغَةِ العَرَبِ هُوَ المُتَقَدِّمُ عَلَى غَيْرِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٦].

ثُمَّ إِنَّ مِنْ أَهْلِ الكَلَامِ مَنْ خَصَّ لَفْظَ القَدِيمِ بِمَا لَمْ يَسْبِقْهُ عَدَمٌ، أَوْ مَا لَمْ يَسْبِقْهُ غَيْرُهُ، وَصَارَ هَذَا عِنْدَهُمْ هُوَ حَقِيقَةَ اللَّفْظِ، حَتَّى صَارَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَظُنُّ أَنَّ اسْتِعْمَالَ القَدِيمِ فِي المُتَقَدِّمِ عَلَى غَيْرِهِ مُطْلَقًا - مَجَازٌ.

فَتَبَيَّنَ أَنَّ مُرَادَهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٧١].

مِنْ جِنْسِ قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا﴾ [طه: ١٢٩].

فَسَبَقَ مِنْهُ كَلِمَتُهُ بِمَا سَيَكُونُ مِنْ نَصْرِ المُرْسَلِينَ، وَمَلْءِ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَحَرَّفَ هَؤُلَاءِ الضَّلَالُ لَفْظَ الآيَةِ فَقَالُوا: ﴿لِعِبَادِنَا الصَّالِحِينَ﴾، وَجَعَلُوا ﴿الكَلِمَةَ﴾ هِيَ المَسِيحَ وَلَيْسَ فِي اللَّفْظِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ بِوَجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ، وَلَا فِي كَوْنِ المَسِيحِ سَبَقَ لِعِبَادِنَا المُرْسَلِينَ مَعْنًى صَحِيحٌ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].